مسائل في الدعاء القرآني

مسائل في الدعاء القرآني

للشيخ الدكتور

ابراهيم بن محمد الحقيل

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

مسائل
في الدعاء القرآني

للشيخ

د. إبراهيم بن محمد الحقيل

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المسألة الأولىٰ : صيغ الدعاء القرآني

في رمضان يجتمع القرآن والدعاء، والقرآن أفضل الكلام، والدعاء هو العبادة، فإذا كان اختيار عبادة الدعاء من أفضل الكلام كان ذلك أفضل الدعاء، وخير الدعاء.

وفي الدعاء القرآني مسائل كثيرة جديرة بالبحث والتأمل، وهذه محاولة للمشاركة في هذا الباب من الخير في هذا الشهر الذي هو شهر القرآن والدعاء، وسأفرد كل مسألة بمقالة، وأحاول أن تكون في كل يومين مقالة إن أسعفني الوقت للكتابة.

وتسرني تعقبات إخواني ممن له علم في هذا الباب، أن يرشدوني ويوجهوني، ويصححوا خطئي؛ فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، سواء كان ذلك علنا بتعقب ينشر في الشبكة حتىٰ يستفيد القراء وهذا أحسن فلست أحرج من ذلك، أو كان خاصا علىٰ بريدي (hogail22@gmail.com) وأسأل الله تعالىٰ أن ينفع بها قارئها، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، إنه سميع مجيب.

صيغ الدعاء في القرآن:

أشهر الصيغ القرآنية في الدعاء وأكثرها (ربنا) للجمع وردت في قرابة (٧٠) موضعا، و(رب) وردت في أكثر من (مئة) موضع للمفرد.

وجاء الدعاء بصيغة (اللهم) في أربعة مواضع فقط:

الأول والثاني: في سياق الأمر بهذه الصيغة؛ وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [سورة آل عمران:٢٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦﴾ [سورة الزمر:٤٦].

الثالث: في الإخبار عن دعاء المشركين يوم بدر، قال تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأنفال:٣٢] .

الرابع: في الإخبار عن دعاء أهل الجنة قوله تعالىٰ : ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة يونس:١٠].

وجاء الجمع بين الصيغتين في موضع واحد، وهو قول الله تعالىٰ : ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [سورة المائدة:١١٤].

وأما بقية الصيغ المتداولة عند الناس نحو: إلهنا، وسيدنا، ومولانا... فلم أعثر علىٰ شيء منها في القرآن الكريم.

ولذا استحب الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن يدعو بصيغة الربوبية؛ لأنها أكثر ما ورد في القرآن، فيقول الداعي أو الداعون (رب أو ربنا) عن ابن وهب قال: سئل مالك عن الداعي يقول: يا سيدي، فقال: يعجبني دعاء الأنبياء: ربنا [(١)].

ونقل ابن تيمية عن مالك أنه قال: أكره للرجل أن يقول في دعائه: يا سيدي يا سيدي، يا حنان يا حنان ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء؛ ربنا ربنا. نقله عنه العتبي في العتبية [(٢)].

ووجَّه شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ¨ تعالىٰ ذلك بأن الأليق في دعاء المسألة استخدام صيغة الربوبية، وفي دعاء الثناء استخدام صيغة الألوهية.

---

(١) [الحلية: ٦/ ٣٢٠]..

(٢) [الفتاوىٰ:١٠/ ٢٨٥].

قال ابن تيمية: «الله» هو الإله المعبود فهذا الاسم أحق بالعبادة؛ ولهذا يقال: الله أكبر، الحمد لله، سبحان الله، لا إله إلا الله و«الرب» هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة [(١)] .

وقال أيضـًا: فإذا سبق إلىٰ قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه الرب. وإن سأله باسمه الله لتضمنه اسم الرب كان حسنا، وأما إذا سبق إلىٰ قلبه قصد العبادة فاسم الله أولىٰ بذلك. إذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله، وإذا قصد الدعاء دعا باسم الرب [(٢)].

وقال ابن القيم: وتأمل كيف صدر الدعاء المتضمن للثناء والطلب بلفظة (اللهم) كما في سيد الاستغفار...وجاء الدعاء المجرد مصدرا بلفظ الرب نحو قول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [سورة آل عمران:١٤٧]...وسر ذلك: أن الله تعالىٰ يسأل بربوبيته المتضمنة قدرته وإحسانه وتربيته عبده وإصلاح أمره، ويثنىٰ عليه بإلهيته المتضمنة إثبات ما يجب له من الصفات العلىٰ والأسماء الحسنىٰ، وتدبر طريقة القرآن تجدها كما ذكرت لك [(٣)].

فالإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يرىٰ أن الدعاء بلفظ الربوبية (رب، ربنا) دعاء الأنبياء فأعجبه، وكره غيره، وفسر ابن تيمية وابن القيم أن ذلك أليق بدعاء المسألة، كما أن الأليق بدعاء الثناء أن يكون بلفظ الألوهية (اللهم)، وأكدا ذلك في مواضع من كتبهم.

قلت: ما قرره الأئمة الأجلاء فائق من جهة المعنىٰ، ولكنه يحتاج إلىٰ مزيد نظر وتحقيق، فالظاهر أن الغالب علىٰ الدعاء الوارد في القرآن أن يكون بلفظ الربوبية ولو كان فيه ثناء علىٰ الله تعالىٰ، وأغلبه دعاء الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وإلا ففي القرآن دعاء الملائكة، ودعاء الصالحين، وكله بلفظ الربوبية سواء اقتصر علىٰ مسألة أو سبق بثناء قبلها، ففي دعاء الملائكة: ﴿رَبَّنَا

(١) [الفتاوىٰ: ١٤/ ١٢-١٣].

(٢) [الفتاوىٰ: ١٠/ ٢٨٦].

(٣) [بدائع الفوائد: ٢/ ١٩٣-١٩٤].

وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ [سورة غافر:٧].

وفي دعاء أولي الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [سورة آل عمران:١٩١]، فهذه مسائل سُبقت بثناء علىٰ الله تعالىٰ، ومع ذلك كانت صيغة الدعاء فيها بلفظ الربوبية لا بلفظ الألوهية.

والسنة علىٰ العكس من ذلك فالغالب في أدعيتها أن تكون بلفظ الألوهية سواء كانت ثناء أم مسائل، وسواء كان دعاء أنبياء أم ملائكة أم صالحين:

ففي مسائل الأنبياء عليهم السلام دعوة الخليل لما زار أهل إسماعيل في مكة قَالَ:«**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ**» (١).

وفي مسائل الملائكة قول النَّبِيّ ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**» (٢)، ودعاؤهم لمن جلس في المسجد اللهم اغفر له اللهم ارحمه.

وفي دعاء الصالحين دعاء الثلاثة أصحاب الغار فإن كل واحد منهم سأل الله تعالىٰ بعمل صالح وصدر سؤاله بـ(اللهم) (٣).

وفي دعاء الثناء علىٰ الله تعالىٰ قبل المسألة حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «**اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهُمَّ أَنْتَ**

---

(١) [رواه البخاري: ٣٣٦٤].

(٢) [رواه مسلم: ١٤٤٢]..

(٣) [رواه البخاري: ٢٢١٥، ومسلم: ٢٧٤٣].

الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»(١).

وأدعية المسألة المجردة بلا ثناء أيضـًا جاءت في السنة بلفظ الألوهية سواء كانت مؤقتة كأدعية الخلاء والجماع والطعام والشراب ودخول المسجد والخروج منه ونحوها، أم كانت دعوات لأشخاص كدعوته ﷺ لأنس وابن عباس وحسان ﷺ، أو دعوته علىٰ أناس كدعوته علىٰ نفر من كفار مكة، وعلىٰ رعل وذكوان وعصية، أو كانت دعوات مطلقة وهي كثيرة جدا، وكل ما وقفت عليه منها في الصحيحين فهي بلفظ الألوهية.

وهذا يدل علىٰ أغلبية الدعاء بلفظ الربوبية في القرآن حتىٰ أشبه أن يكون مختصا به، وعلىٰ أغلبية الدعاء بلفظ الألوهية في السنة حتىٰ كان مختصا بها، وليس لأجل أنه دعاء الأنبياء عليهم السلام كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ؛ لأن غالب دعاء النبي عليه الصلاة والسلام بلفظ الألوهية، بينما دعاء الرسل غيره مما جاء في القرآن بلفظ الربوبية، وليس التفريق بينهما لأجل الاختلاف بين دعاء المسألة والطلب كما قرره الإمامان ابن تيمية وابن القيم، فلعل ذلك لأجل النظم القرآني وبلاغته أو غير ذلك.

وعليه فلو دعا ب (رب أو ربنا) فهو دعا بالصيغة الأغلب في القرآن، ولو دعا ب (اللهم) فهو دعاء بالصيغة الأغلب في السنة، ولو جمع بينهما فقال (اللهم ربنا) فقد ورد الجمع بينهما في القرآن في دعاء عيسىٰ عليه السلام، وورد في السنة من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام في الصلاة وخارجها؛ كما في الصحيحين وغيرهما، ولا فرق في ذلك بين دعاء المسألة والثناء، والله تعالىٰ أعلم.

(١) [رواه مسلم: ٢٧١٣].

المسألة الثانية : الإفراد والجمع في الدعاء

الأدعية في القرآن تأتي تارة بصيغة الجمع (ربنا) وتارة بصيغة المفرد (رب) فهل يغير الداعي الصيغة أم يدعو بها كما هي؟!

لا يخلو الداعي من حالين:

الأولىٰ: أن يدعو بمفرده، وحينئذ لا يغير صيغة الجمع الواردة في الدعاء القرآني إلىٰ المفرد، ويكون في الإتيان بضمير الجمع تعظيم لله تعالىٰ؛ وذلك لأن جملة من دعوات الأنبياء عليهم السلام كانت بصيغة الجمع كدعوات الخليل عليه السلام في أواخر سورة إبراهيم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك فيكون هذا أحسن وأعظم موقعا عند الملك من أن يقول أنا عبدك ومملوكك [١].

الثانية: أن يدعو بجماعة يؤمنون علىٰ دعائه في صلاة أو غيرها، فيغير الصيغة من المفرد إلىٰ الجمع؛ لأنه يدعو وليس يقرأ القرآن.

نحو دعائه بـ ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه:١١٤] يجعلها (ربنا زدنا علما) ونحو دعاء الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الشعراء:٨٣-٨٥]؛ يجعلها (ربنا هب لنا حكما وألحقنا بالصالحين، واجعل لنا ألسن صدق في الآخرين، واجعلنا من ورثة جنة النعيم) وهكذا..لأنه إن دعا بصيغة المفرد الواردة في القرآن اختص هو بهذا الدعاء دون من يُؤمِّنون علىٰ دعائه، وهذا فيه حرمان لهم، ولا يحل له أن يستأثر بالدعاء دونهم.

وفي النهي عنه حديث ضعيف عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:«**لَا يَؤُمُّ عَبْدٌ فَيَخُصَّ نَفْسَهُ بِدَعْوَةٍ دُونَهُمْ، فَإِنْ فَعَلَ فَقَدْ خَانَهُمْ**» [١] .

---

(١) [بدائع الفوائد: ٢/ ٣٩].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: وإذا كان المأموم مُؤمِّنا علىٰ دعاء الإمام فيدعو بصيغة الجمع كما في دعاء الفاتحة في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [سورة الفاتحة:٦]؛ فإن المأموم إنما أمَّن لاعتقاده أن الإمام يدعو لهما جميعا، فإن لم يفعل فقد خان الإمام المأموم [٢].

وفي فتاوىٰ اللجنة الدائمة [٣]: إن كان الإمام يدعو لنفسه ولغيره جهرة حال القنوت والدعاء في خطب الجمعة وغيرها فلا يخص نفسه بالدعاء دونهم، بل يأتي بصيغة الجمع.اهـ.

فقولهم (جهرة) خرج منه الدعاء الذي يخص الإمام به نفسه في السجود وبعد التشهد ونحوه؛ لأن الإمام لا يجهر به، فله أن يفرده ولا يجمعه، ولو جمعه وقصدهم أو قصد غيرهم فلا بأس؛ لأنه يجوز له أن يدعو لنفسه ولغيره داخل الصلاة وخارجها.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: والمراد بالدعاء الدعاء الذي يؤمن عليه المأموم، فإن الإمام لا يخص به نفسه، أما الدعاء الذي لا يؤمن عليه المأموم فله أن يخص نفسه به [٤].

ويجوز للداعي أن ينتقل من صيغة المفرد إلىٰ الجمع، ومن الجمع للمفرد في دعاء واحد، وحجة ذلك دعاء الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣٦ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي

---

(١) [رواه الترمذي وحسنه: ٣٥٧].

(٢) [الفتاوىٰ: ٢٣/ ١١٨].

(٣) فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٥/ ٣٠٨).

(٤) [فتاوىٰ ورسائل العثيمين: ١٣/ ١٤٠]..

لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [سورة إبراهيم:٣٥-٤١].

فدعا عليه السلام بصيغة المفرد، ثم انتقل منها إلىٰ الجمع، ثم رجع مرة أخرىٰ للمفرد ثم إلىٰ الجمع، وأكثر المفسرين لم يبينوا لم فعل ذلك، لكن من بينوا ذلك اختلفوا علىٰ أقوال:

الأول: قال أبو حيان رحمه الله تعالىٰ: وأتىٰ بضمير جماعة المتكلمين؛ لأنه تقدم ذكره وذكر بنيه في قوله:

(واجنبني وبني) [(١)]، وهذا متعقب بالإفراد بعد ذلك ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [سورة إبراهيم:٣٦] و ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة إبراهيم:٤٠].

الثاني: قال ابن جزي رحمه الله تعالىٰ: وجمع الضمير يدل علىٰ أنه كان علم أن ابنه يعقب هناك نسلا.اهـ. وهو كسابقه متعقب بـ ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة إبراهيم:٤٠].

الثالث: وقال أبو السعود: آثر عليه السلام ضمير الجماعةِ لا لما قيلَ من تقدم ذكرِه وذكرِ بنيه، وإلا لراعاه في قوله﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ [سورة إبراهيم:٣٦]... الخ ، بل لأن الدعاء المصدّرَ به، وما أورده بصدد تمهيدِ مبادي إجابتِهِ من قوله: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ [سورة إبراهيم:٣٧]...الآية، متعلقٌ بذريته، فالتعرضُ لوصف ربوبيته تعالىٰ لهم أدخلُ في القبول وإجابة المسئول [(٢)].

وهو كسابقيه متعقب بـ ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة إبراهيم:٤٠].

الرابع: وقال ابن عاشور: وأضيف الرب هنا إلىٰ ضمير الجمع خلافا لسابقيه؛ لأن الدعاء الذي افتتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه. ولعل إسماعيل عليه السلام حاضر معه حين الدعاء كما تدل له الآية الأخرىٰ [(٣)].

---

(١) [البحر المحيط: ٦/ ٤٤٦].

(٢) [تفسير أبي السعود: ٥/ ٥١].

(٣) [التحرير والتنوير ١٣/ ٢٤٠].

ويظهر لي أن هذا الوجه هو أحسن أوجه تخريج ذلك، ومع ذلك فهو متعقب بأول الدعاء، وهو قول الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [سورة البقرة:١٢٦]؛ فإن هذه الدعوة عامة ونافعة لكل من أتىٰ البيت الحرام وهي بلفظ الإفراد، إلا أن يقال: إنه وقت الدعاء لم يكن فيه إلا زوجه وابنه.

وعلىٰ كل حال: فإن الداعي لو راعىٰ أن تكون دعوته بلفظ الإفراد إن كانت دعوة خاصة به، وبلفظ الجمع إن كانت عامة كان موافقا لهذا القول. ولو دعا بلفظ الجمع باعتبار تعظيم الله تعالىٰ كما هو قول ابن القيم الذي سقته آنفا فحسن أيضـًا.

المسألة الثالثة : دعاء المضطر

أخبر الله تعالىٰ في آيات كثيرة جدا أن الإنسان إذا أصابته حالة الاضطرار هرع إلىٰ الله تعالىٰ بالدعاء، وترك حالة الكفر أو الفجور التي كان عليها قبل ذلك، وأظهر حاجته لله تعالىٰ، وأنزل فاقته به سبحانه، وأقر باضطراره إليه ﷻ، ثم قد يعود إلىٰ كفره أو فجوره بعد نجاة الله تعالىٰ له، ورفع حالة الاضطرار التي كان عليها؛ لأنه ينسىٰ.

ومن تلكم الآيات:

قول الله تعالىٰ : ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الأنعام:٤٠-٤١].

وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة يونس:١٢].

وقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة النحل:٥٣-٥٤].

وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧].

وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم:٣٣].

وقوله تعالىٰ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر:٤٩].

وقوله سبحانه في بعض الآيات: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم:٣٣]، يدل علىٰ أن بعض الناس ينتفع من حالة الاضطرار التي أصابته فلا يعود بعد كشفها عنه إلىٰ ما كان عليه قبل الاضطرار من الكفر أو المعصية؛ فيكون من نعم الله تعالىٰ المتعددة عليه: أنه أصابه بالضراء، وألهمه الدعاء، واستجابه له، ورزقه الموعظة مما مرَّ به، فكان ما أصابه خيرا. وأفضال الله تعالىٰ علىٰ عبادة كثيرة، وألطافه بهم عظيمة، فلا يجزع عبد أو طائفة أو أمة من الناس إن أصيبوا بضراء ألجأتهم إلىٰ الاضطرار، فلعل رجوعهم إلىٰ الله تعالىٰ لا يكون إلا بذلك، أو لعل فاقتهم ودعاءهم لا يستخرج إلا بذلك.

ودعوة المضطر مجابة علىٰ كل حال، قال الله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢].

جاء ذلك في سياق البرهان علىٰ ربوبية الله تعالىٰ وألوهيته، بأسلوب الاستفهام ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ [النمل:٦٢] المختوم بالاستفهام الإنكاري ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٢].

والآية هنا عامة في إجابة دعاء المضطر برا كان أم فاجرا، مؤمنا كان أم كافرا، بل ولو كان ملحدا لا يؤمن بالربوبية، ثم لجأ إلىٰ الله تعالىٰ حال اضطراره لأجابه الله تعالىٰ؛ لأن الله تعالىٰ علق إجابة الدعاء بالاضطرار فقط.

ويدل لذلك أن الله تعالىٰ استجاب دعاء المشركين في البحر كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت:٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان:٣٢].

وكثير من دعاء الأنبياء عليهم السلام هو دعاء مضطرين كقول إبراهيم ومحمد (حسبي الله)، قالها الخليل حين قذف في النار، وقالها محمد حين قيل له: إن الناس قد جمعوا لكم، ودعاء نوح:

﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [سورة القمر:١٠]، وقال يعقوب: ﴿أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[يوسف:٨٦]، وقال أيوب: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء:٨٣]، وقال يونس: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧].

ودلت السنة علىٰ ما دل عليه القرآن من إجابة دعاء المضطر؛ كما جاء في **حديث أَبِي تَمِيمَةَ الْهُجَيْمِيِّ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَلْهُجَيْمٍ، قَالَ: قُلْتُ «يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَامَ تَدْعُو؟ قَالَ: أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ، الَّذِي إِنْ مَسَّكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَ عَنْكَ...** »[(١)].

ومن وقع في الاضطرار فلا يسأل أحدا أن يدعو له ويترك هو الدعاء؛ لأنه يكون بذلك قد ترك طريق مظنة الإجابة وسلك غيره؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ صَالِحٍ الْمَكِّيِّ، قَالَ: دَخَلَ عَلَيَّ طَاوُسٌ يَعُودُنِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ادْعُ اللهَ لِي. فَقَالَ:«ادْعُ لِنَفْسِكَ؛ فَإِنَّهُ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ»[(٢)].

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:«دعاء المضطر مجاب في أي مكان اتفق»[(٣)].

وأما ما جاء في القرآن نفيًا لإجابة دعاء الكافر -ولو كان مضطرًا- فهو علىٰ نوعين:

الأول: نفي إجابة دعاء الكافر إذا دعا معبوداته من دون الله تعالىٰ؛ لأن هذه المعبودات لا تسمع دعاءه إن كانت جمادات أو أمواتا، ولو سمعته فإنها لا تنفعه، ومن هذا النوع قول الله تعالىٰ : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد:١٤].

---

(١) [رواه أحمد: ٢٠٦٣٦].

(٢) [تفسير ابن أبي حاتم: ٩/ ٢٩١٠].

(٣) [السير: ٩/ ٣٤٤].

فالذي في ضلال ولا يستجاب دعاؤهم أصنامهم، وليس دعاءهم الله تعالىٰ، وهذه الآية هي مثل قول الله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ [سورة فاطر:١٣-١٤].

الثاني: نفي إجابة دعاء الكافر يوم القيامة؛ لأن العمل - ومنه الدعاء - قد انقطع، فلا ينفعهم دعاؤهم آنذاك، ومنه قول الله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٥٠﴾ [سورة غافر:٤٩-٥٠].

واستدل ابن عاشور بهذه الآية علىٰ عدم إجابة دعاء الكافر مطلقا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ويأتي بحث ذلك في مقال قادم إن شاء الله تعالىٰ.

والظاهر أن المشرك المضطر لو لم يخلص في دعائه لله تعالىٰ، بأن دعاه ودعا معه معبوداته من دون الله تعالىٰ أنه لا يجاب؛ لأن الله تعالىٰ وصف المشركين حال دعائهم المجاب بالإخلاص ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس:٢٢]،[العنكبوت:٦٥]،[لقمان:٣٢]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: أخلصوا لله -عند الشدّة التي نزلت بهم- التوحيد، وأفردوا له الطاعة، وأذعنوا له بالعبودية، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم، ولكن بالله الذي خلقهم [(١)].

علىٰ أن حالة الاضطرار جالبة للإخلاص في الأغلب، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ:«ضمن الله تعالىٰ إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجئ ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر» [(٢)].

---

(١) [جامع البيان:٢٠/ ٦٠].

(٢) [تفسير القرطبي: ١٣/ ٢٢٣].

المسألة الرابعة : هل تجاب دعوة الكافر؟

أكفر الخلق إبليس المطرود من رحمة الله تعالىٰ، وكل كفر في الجن والإنس فبسبب إغوائه وإضلاله ووسوسته وصده عن دين الله تعالىٰ، ومع ذلك دعا الله تعالىٰ بعد أن طرد من رحمته ﷻ فأعطاه بعض ما سأل ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ [سورة الحجر:٣٦-٣٨].

وكثيرا ما يستدل بعض الدعاة والوعاظ بإجابة الله تعالىٰ لإبليس حين طلب الإنظار علىٰ أن الله تعالىٰ يجيب دعوة الداعي، وأن المؤمن أولىٰ بالإجابة من إبليس؛ لحث الناس علىٰ الدعاء. فهل تعد هذه إجابة من الله تعالىٰ لدعاء إبليس؟

اختلف العلماء في ذلك علىٰ قولين:

القول الأول: أن إبليس دعا ربه سبحانه فأجابه، لكن لم يجبه إلىٰ ما أراد، فإنه طلب الإنظار إلىٰ يوم البعث حتىٰ لا يذوق الموت؛ إذ بعد البعث لا موت، فأجابه الله تعالىٰ وجعل إنظاره إلىٰ يوم الوقت المعلوم، وقد قيل فيه: إنه يوم الصعقة الأولىٰ التي يموت فيها الأحياء.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: أجابه تعالىٰ إلىٰ ما سأل؛ لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب[١].

وقال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: فإن قيل: وهل يجوز أن يجيب الله دعوة الكافر؛ حيث أجاب دعوة اللعين؟ قيل: يجوز علىٰ طريق الاستدراج والمكر والإملاء لا علىٰ سبيل الكرامة[٢].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم؛ ليتبين الصادق من الكاذب ومن يطيعه ممن يطيع عدوه أجابه لما سأل[٣].

---

(١) [تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٣].

(٢) [تفسير السمعاني: ٢/ ١٦٩].

(٣) [تفسير السعدي: ١/ ٢٨٤].

القول الثاني: أن الله تعالىٰ لم يجب إبليس إلىٰ ما دعا، ولكن دعوته وافقت أمرا مقدرا.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وقد أفاد التأكيد بـ(إن) والإخبار بصيغة (من المنظرين) أن إنظاره أمر قد قضاه الله وقدره من قبل سؤاله، أي: تحقق كونك من الفريق الذين أُنظروا إلىٰ يوم البعث، أي: أن الله خلق خلقا وقدّر بقاءهم إلىٰ يوم البعث، فكشف لإبليس أنه بعض من جملة المنظرين من قبل حدوث المعصية منه، وإن الله ليس بمغير ما قدره له، فجواب الله تعالىٰ لإبليس إخبار عن أمر تحقق، وليس إجابة لطلبة إبليس؛ لأنه أهون علىٰ الله من أن يجيب له طلبا، وهذه هي النكتة في العدول عن أن يكون الجواب: أنظرتك أو أجبت لك، مما يدل علىٰ تكرمة باستجابة طلبه، ولكنه أعلمه أن ما سأله أمر حاصل فسؤاله تحصيل حاصل[(١)].

وتفريعًا علىٰ هذه المسألة: هل تستجاب دعوة الكافر أم لا؟

فجمهور المفسرين يرون أن الله تعالىٰ قد استجاب دعوة إبليس بالإنظار لحكمة ابتلاء الخلق به، وهذا يدل علىٰ جواز إجابة الله تعالىٰ دعوة الكافر، واستدلوا لذلك بأدلة كثيرة، منها:

١- قول الله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [سورة النمل:٦٢]. ولم يفرق في الآية بين مؤمن وكافر، فمن دعا الله تعالىٰ وهو مضطر استجاب له.

٢- قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة العنكبوت:٦٥]، وفي معناها آيات كثيرة أوردت جملة منها في مقالة (دعوة المضطر).

٣- قول النَّبِيِّ ﷺ لمُعَاذ رضي الله عنه: «**اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**»[(٢)].

---

(١) [التحرير والتنوير: ٨/ ٤٥-٤٦].

(٢) [رواه البخاري: ١٤٩٦، ومسلم: ١٩].

فهذا عام يشمل كل مظلوم ولو كان كافرا، وقد جاء في روايات أخرىٰ ضعيفة (ولو كان كافرا) (ولو كان فاجرا ففجوره علىٰ نفسه).

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (**والخلق كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم، وقد يجيب الله دعاء الكفار؛ فإن الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم**) [(١)].

وقال أيضـًا: وأما إجابة السائلين فعام؛ فإن الله يجيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وإن كان كافرا[(٢)].

وأما ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فيرىٰ أن دعوة الكافر لا تجاب، واستدل بأدلة:

١- قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٥٠﴾ [سورة غافر: ٥٠].

قال ابن عاشور: والمعنىٰ: أن دعاءهم لا ينفعهم ولا يقبل منهم، وسواء كان قوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٥٠﴾ [سورة غافر: ٥٠]، من كلام الملائكة أو من كلام الله تعالىٰ فهو مقتض عموم دعائهم؛ لأن المصدر المضاف من صيغ العموم فيقتضي أن دعاء الكافرين غير متقبل في الآخرة وفي الدنيا لأن عموم الذوات يستلزم عموم الأزمنة والأمكنة[(٣)].

٢- أن الله تعالىٰ لا يستجيب لآكل الحرام وهو مؤمن، فكيف يستجيب للكافر؟

قال ابن عاشور: وكيف يستجاب دعاء الكافر وقد جاء عن النبي ﷺ استبعاد استجابة دعاء المؤمن الذي يأكل الحرام ويلبس الحرام[(٤)].

---

(١) [الفتاوىٰ ١/ ٢٠٦].

(٢) [الفتاوىٰ: ١/ ٢٢٣].

(٣) [التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٦٦].

(٤) [السابق: ٢٤/ ١٦٦].

ويجيب ابن عاشور علىٰ الآيات التي تفيد إجابة دعاء الكفار بأن دعواتهم وافقت قدرا محتوما، قال: ولهذا لم يقل الله: فلما استجاب دعاءهم، وإنما قال: فلما نجاهم، أي: لأنه قدر نجاتهم من قبل أن يدعوا، أو لأن دعاءهم صادف دعاء بعض المؤمنين[١].

ومع قوة تخريجات ابن عاشور فالذي يظهر لي رجحانه هو قول الجمهور، وهو أن الله تعالىٰ قد يستجيب دعاء الكافر، ولا سيما إن كان مضطرا أو مظلوما.

وأما الآية التي استدل بها ابن عاشور فهي في عدم إجابة دعائهم في الآخرة كما هو سياقها، وإن كان ابن عاشور يرىٰ عمومها لكونها مصدرا مضافا.

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: واستدل بها مطلقـًا من قال: إن دعاء الكافر لا يستجاب، وإنه لا يُمَكَّن من الخروج في الاستسقاء، والحق أن الآية في دعاء الكفار يوم القيامة، وأن الكافر قد يقع في الدنيا ما يدعو به ويطلبه من الله تعالىٰ إثر دعائه كما يشهد بذلك آيات كثيرة، وأما أنه هل يقال لذلك إجابة أم لا فبحث لا جدوىٰ له[٢].

ومن المهم الانتباه إلىٰ أن ابن عاشور لا ينفي حصول مراد الكفار عند دعوات دعوا بها، ولكنه لا يجعلها استجابة من الله تعالىٰ؛ لأن الاستجابة تكريم لا يليق بالكافر، فيخرجها ابن عاشور تخريجات أخرىٰ.

وقد أشار إلىٰ هذا المعنىٰ الألوسي في كلامه الآنف ذكره حين قال: وأما أنه هل يقال لذلك إجابة أم لا فبحث لا جدوىٰ له.

وأما الحديث الذي استدل به ابن عاشور في منع الإجابة عن آكل الحرام، فهذا مانع من موانع الإجابة يشمل المؤمن والكافر، لكن لا يلزم منه رد دعوة الكافر مطلقا بقياس الأولىٰ؛ لأنه قياس في مقابل النص في دعاء المضطر والمظلوم.

---

(١) [السابق: ٢٤/ ١٦٧].

(٢) [روح المعاني: ١٢/ ٣٢٩].

بقي أن نعلم -وهو مما يزيل الإلباس-: أن إجابة الله تعالىٰ لدعاء عباده لا تكون تكريما علىٰ الدوام، بل قد تكون تكريما، أو ابتلاء، أو عقوبة؛ فالرجل إذا دعا علىٰ أهله أو ولده أو ماله وهو غضبان فاستجيب له فيهم؛ كان ذلك ابتلاء أو عقوبة، والداعي لا يريد الإجابة، ومع ذلك أجيب؛ ولذا ورد النهي عن الدعاء علىٰ الأهل والمال والولد؛ لئلا يوافق ساعة إجابة فيستجاب.

وكذلك إجابة دعاء الكافر قد تكون خيرا له؛ كمن دعا الله تعالىٰ أن يبصره بالحق، ويعينه عليه، ثم اهتدىٰ، وهذا من أعظم صور الاضطرار المجاب صاحبه؛ لأن الكفر والشك والحيرة أعظم الغم والكرب، وأقل منه إذا دعا بالنجاة من عدو، ونحو ذلك.

وقد تكون شرًا عليه كما لو دعا بجاه أو مال أو نحوه فيستجاب له؛ لأن فيه هلاكه، فلا تكون استجابة الله تعالىٰ كرامة له، بل هي عقوبة معجلة.

قال شيخ الإسلام: فليس كل من متعه الله برزق ونصر، إما إجابة لدعائه، وإما بدون ذلك، يكون ممن يحبه الله ويواليه، بل هو سبحانه يرزق المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وقد يجيب دعاءهم ويعطيهم سؤلهم في الدنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: فليس كل من أجاب الله دعاءه يكون راضيـًا عنه، ولا محبـًا له، ولا راضيـًا بفعله؛ فإنه يجيب البر والفاجر، والمؤمن والكافر[٢].

ولا يظنن ظان أنه إن كان الأمر كذلك فإنه لا فرق بين المؤمن والكافر في باب الدعاء والاستجابة؛ إذ الفرق كبير جدا، ومن أوجهه:

١- أن دعاء المؤمن يقبل، ويؤجر عليه؛ لأنه عبادة، سواء أعطي ما سأل أم لم يعطه، وثواب ذلك أعظم مما سأل لو أعطيه في الغالب، خاصة سؤال أمور الدنيا، وليس كذلك الكافر،

---

(١) [الاقتضاء: ٢/ ٣١٥].

(٢) [إغاثة اللهفان: ١/ ٢١٥].

فدعاؤه غير مقبول، ولا أجر له فيه، ولو أعطي سؤله، وهذا فرق مهم يجب أن لا يعزب عن بال المؤمن.

قال ابن القيم: فالدعاء قد يكون عبادة فيثاب عليه الداعي، وقد يكون مسألة تقضىٰ به حاجته ويكون مضرة عليه، إما أن يعاقب بما يحصل له، أو تنقص به درجته، فيقضي حاجته ويعاقبه علىٰ ما جرّأ عليه من إضاعة حقوقه واعتداء حدوده(١).

٢- أن المؤمن لا بد أن يجاب في دعائه، وليس كذلك الكافر، ولكن إجابة الله تعالىٰ له تكون بما هو أصلح للعبد، والله تعالىٰ أعلم بما يصلح له، وحجة ذلك **حديث أَبِي سَعِيدٍ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا»**(٢).

ومن المسائل المتعلقة بهذا الموضوع: حكم طلب المؤمن الدعاء من الكافر؟ وهل يُؤَمِّنُ المؤمن علىٰ دعاء الكافر ولو لم يطلبه منه؟

أما طلب الدعاء من الكافر فالظاهر المنع منه؛ لأن المؤمن أولىٰ بالاستجابة من الكافر؛ ولأن في طلب الدعاء منه إعزازا له، وقد يعتقد صحة ما هو عليه من الكفر فيصده عن الدين؛ ولما فيه من فتنة المؤمنين في دينهم إن رأوا بعض المسلمين يطلبون من الكفار الدعاء لهم.

وأما التأمين علىٰ دعاء الكافر إذا دعا من غير طلب الدعاء منه، فالذين يقولون بعدم الاستجابة للكافر يمنعون ذلك، قال الروياني: لا يجوز أن يؤمن علىٰ دعائه؛ لأنه غير مقبول(٣).

والذي يظهر لي أن دعاء الكافر لا يخلو من حالين:

---

(١) [إغاثة اللهفان: ١/ ٢١٦].

(٢) [رواه أحمد:١١١٣٣].

(٣) [رواه أحمد:١١١٣٣].

الأولىٰ: أن يدعو الله تعالىٰ بخير للمؤمن، أو لجماعة المؤمنين، كاستسقائه مثلا، ولا يكون فيه إعزاز للكافر؛ فإنه يشرع للمؤمن التأمين عليه؛ فإنَّ تأمين المؤمن دعاء، وهذا أكثر ما يقع في ولد مؤمن مع والدين كافرين، أو قريب أو جار، أو حضور أهل الذمة للاستسقاء ونحوه، عن حسان بن عطية قال: «**لا بأس أن تؤمن علىٰ دعاء الراهب إذا دعا لك. فقال: إنه يستجاب لهم فينا ولا يستجاب لهم في أنفسهم**»[(١)].

وأكثر ما ترد هذه المسألة عند الفقهاء في خروج أهل الذمة للاستسقاء مع المؤمنين فهل يُمنعون وهو مذهب الحنفية وقال به بعض الشافعية، أو يتركون وهو مذهب الجمهور[(٢)].

الثانية: أن يدعو غير الله تعالىٰ فلا يجوز التأمين علىٰ دعائه؛ لأنه إقرار للشرك، أو يكون فيه إعزاز للكافر فلا يُؤَمِّن؛ لأن المفسدة أعظم، أو يدعو بدعاء ملتبس محتمل، فله أن يجيبه بقوله (ولكم بمثل) ونحو ذلك؛ لقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الْيَهُودَ إِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ يَقُولُ أَحَدُهُمُ السَّامُ عَلَيْكُمْ فَقُلْ عَلَيْكَ**»[رواه مسلم: ٢١٦٤]. وقوله ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ، وَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ**»[(٣)].

وأختم بتنبيهين:

الأول: يجب علىٰ المسلم الحذر من ظلم الكافر؛ فكفره لا يسوغ ظلمه؛ لأن الله تعالىٰ حرم الظلم علىٰ نفسه، ووعد بإجابة دعوة المظلوم ولو كان كافرا.

الثاني: في دعوة الكافر للإسلام قد يصل المؤمن مع بعض الكفار إلىٰ طريق مسدود في النقاش والجدال والإقناع، فينصح بأن يختم الجدل بقوله للكافر: ادع الله تعالىٰ دعاء مضطر أن يدلك علىٰ الحق ويعينك علىٰ إتيانه.

---

(١) [رواه إسحاق بن راهويه: ١٦٨٦].

(٢) [ينظر: المبسوط: ٢/ ٧٧، والذخيرة: ٢/ ٤٣٤، والمغني: ٢/ ٣٢٨].

(٣) [رواه البخاري: ٦٠٣٠].

المسألة الخامسة : الدعاء القرآني في الصلاة

لم يختلف العلماء في أن الصلاة محل دعاء، ولا في أن أكمل الأدعية أدعية القرآن، وإنما وقع الخلاف بينهم في مسألتين:

الأولىٰ: هل يجوز أن يدعو بغير الدعاء القرآني في الصلاة؟

الثانية: حكم الدعاء القرآني في السجود.

أما المسألة الأولىٰ: فمنع الحنفية من الدعاء في الصلاة بغير أدعية القرآن أو ما يشبهها.

قال السرخسي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: وحاصل المذهب عندنا أنه إذا دعا في صلاته بما في القرآن أو بما يشبه ما في القرآن لم تفسد صلاته، وإن دعا بما يشبه كلام الناس نحو قولهم: اللهم ألبسني ثوبا، اللهم زوجني فلانة تفسد صلاته[١].

وحجتهم قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[٢].

وجمهور العلماء علىٰ جواز ذلك، والحجة معهم؛ لعموم قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِذَا قَعَدَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، فَإِذَا قَالَهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ مَا شَاءَ» وفي رواية «ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ فَيَدْعُو»[٣].

---

(١) [المبسوط: ١/ ١٩٨].

(٢) [رواه مسلم: ٥٣٧].

(٣) [رواه: البخاري: ٨٣٥ ومسلم: ٤٠٢].

فهذا نص صحيح صريح في أن المصلي يتخير في صلاته من الدعاء ما شاء ما لم يكن فيه تعدٍ في الدعاء، فيُمنع منه لأجل التعدي لا لأجل كونه في الصلاة؛ إذ التعدي في الدعاء لا يجوز في الصلاة ولا خارجها.

قال الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: فإذا ثبت أن الدعاء مسنون فكل دعاء جاز أن يدعو به في غير الصلاة جاز أن يدعو به في الصلاة، وأما قياسهم علىٰ كلام الآدميين فليس الدعاء من كلام الآدميين، وإنما هو ابتهال ورغبة فكان بالذكر أشبه[١].

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: وحكىٰ عنه ابن المنذر -أي عن أحمد-، أنه قال: لا بأس أن يدعو الرجل بجميع حوائجه؛ من حوائج دنياه وآخرته. وهذا هو الصحيح إن شاء الله تعالىٰ؛ لظواهر الأحاديث[٢].

المسألة الثانية: الدعاء القرآني في السجود:

الأصل أن قراءة القرآن في السجود منهي عنها في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «...**أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»[٣].

والظاهر أن النهي هنا يقتضي التحريم لا مجرد الكراهة:

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: وقد اتفق العلماء علىٰ كراهة القراءة في الركوع والسجود، وتنازعوا في بطلان الصلاة بذلك[٤].

---

(١) [الحاوي الكبير: ٢/ ١٣٩-١٤٠].

(٢) [المغني: ١/ ٣٩٣].

(٣) [رواه مسلم: ٤٧٩].

(٤) [الفتاوىٰ: ٢٣/ ٥٨].

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وأكثر العلماء علىٰ كراهة القراءة في الركوع والسجود، ومنهم من حكاه إجماعاً. وهل الكراهة للتحريم أو للتنزيه؟ فيه اختلاف. وحكىٰ ابن عبد البر الإجماع علىٰ أنه لا يجوز[١].

وقال الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: الحديث دليل علىٰ تحريم قراءة القرآن حال الركوع والسجود؛ لأن الأصل في النهي التحريم، وقال نحوه الشوكاني[٢].

وفي فتاوىٰ اللجنة الدائمة: لا تجوز قراءة القرآن في الركوع والسجود؛ لنهي النبي ﷺ عن ذلك[٣].

فالحديث قد دلَّ علىٰ أن السجود موطن دعاء، والدعاء فيه مظنة استجابة، فلا إشكال في الدعاء فيه عموما، وإنما الإشكال إن دعا بشيء من أدعية القرآن في السجود، فمنع منه قوم، والصحيح جوازه؛ لأنه داع في تلك الحالة وليس قارئًا.

قال أبو عبد الله الزركشي الشافعي فيما نقله عنه زكريا الأنصاري رحمهما الله تعالىٰ: ومحل كراهتها إذا قصد بها القراءة، فإن قصد بها الدعاء، والثناء فينبغي أن يكون كما لو قنت بآية من القرآن[٤].

وقال أبو العباس الصاوي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وَكُرِهَ اَلْقِرَاءَةُ بِرُكُوعٍ أَوْ سُجُودٍ إِلَّا أَنْ يَقْصِدَ فِي اَلسُّجُودِ بِهَا اَلدُّعَاء كَأَنْ يَقُول: «﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [سورة آل عمران:٨]» إلخ، فَلَا يُكره[٥].

---

(١) [فتح الباري لابن رجب: ٧/ ١٨٨].

(٢) [السبل: ١/ ٢٦٦، والنيل: ٢/ ٢٨٨].

(٣) [٧/ ١٨٢].

(٤) [أسنىٰ المطالب:١/ ١٥٧].

(٥) [بلغة السالك:١/ ٣٣٩].

وفي حاشية قليوبي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: تكره القراءة في غير القيام في الصلاة إن قصد القراءة ولو مع غيرها وإلا فلا؛ للصارف، كما في الجنابة[١].

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: النبي ﷺ نُهِيَ أن يقرأ القرآن وهو راكع أو ساجد، اللهم إلا إذا دعا بجملة من القرآن مثل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [سورة آل عمران:٨]، فهذا لا يضرُّ؛ لأن المقصود به الدُّعاء[٢].

وبهذا يتبين أنه لا حرج علىٰ المصلي أن يدعو بأدعية القرآن في السجود إذا قصد الدعاء ولم يقصد القراءة، ويكون حينئذ قد اختار أفضل الأدعية، في أفضل محل للدعاء وهو السجود، فقمن أن يستجاب له.

وإذا تقرر ذلك: فهل الركوع مثل السجود، بمعنىٰ أنه يختار في ركوعه من دعاء الثناء والتعظيم القرآني فيقوله في الركوع، ولا سيما في الصلاة الطويلة كصلاة الليل والكسوف؛ فإن تنويع الثناء والتعظيم لله تعالىٰ يطرد الملل، ويستجلب الخشوع؟

اختلف الفقهاء في ذلك علىٰ قولين:

الأول: المنع منه؛ للنهي عن القراءة في الركوع، قال ابن رشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: قد يوافق في دعائه ما في القرآن فيكون قد خالف ما نهىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من قراءة القرآن في الركوع. ولا اختلاف في أنه لا تجوز قراءة القرآن في الركوع[٣].

الثاني: مشروعية ذلك؛ لعموم الأحاديث المفيدة أن الركوع محل للتعظيم والثناء علىٰ الله تعالىٰ، وإذا جاز ذلك بغير ما ورد في السنة من التعظيم والثناء، لم يكن ما ورد من أدعية التعظيم والثناء التي في القرآن خارجا عن ذلك، وهي أولىٰ من أدعية الثناء والتعظيم التي

---

(١) [حاشيتا قليوبي وعميرة: ١/ ١٧٧].

(٢) [الشرح الممتع: ٣/ ١٣٣].

(٣) [البيان والتحصيل: ١٨/ ٦٣].

يخترعها المصلي. وقد نص علىٰ ذلك بعض فقهاء الشافعية؛ ففي حاشية الجمل علىٰ شرح المنهج: (قوله: وتكره القراءة في الركوع) أي: ما لم يقصد الذكر وإلا لم تكره. ثم نقل عن الزركشي قوله: ومحل كراهتها إذا قصد بها القراءة فإن قصد بها الدعاء والثناء فينبغي أن يكون كما لو قنت بآية من القرآن، أي: فلا يكون مكروها[١].

وفي حاشية البجيرمي علىٰ الخطيب: (وتكره القراءة في الركوع) أي: بقصدها؛ لأن الركوع محل الذكر فيكون صارفا عن القرآنية بخلاف ما إذا قصد الدعاء أو أطلق[٢].

بقي الرفع من الركوع، وهو موضع ثناء علىٰ الله تعالىٰ، والجلسة بين السجدتين، وعقب التشهد، وهما موضع دعاء مسألة.

كل هذه المواضع الثلاثة لم يرد النهي عن قراءة القرآن فيها -فيما أعلم- ولكنها أيضًا ليست موضعا لقراءة القرآن، والقراءة فيها خلاف السنة، ولو قيل بالمنع علىٰ أن الأصل في العبادة التوقيف فهو الأقرب للصواب.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: واتفقوا علىٰ كراهة قراءة القرآن في الركوع والسجود وغير حالة القيام للحديث[٣].

لكن دعاء الثناء من القرآن في الرفع من الركوع إن قيل بمشروعية الزيادة علىٰ ما ورد في السنة جاز أن يكون من القرآن، وإن قيل لا يشرع الزيادة علىٰ الوارد لم يشرع أن يكون من القرآن ولا من غيره. ولم أقف علىٰ كلام للعلماء في ذلك، وهو محل بحث وتأمل.

---

(١) [١/ ٣٦٥].

(٢) [٢/ ٧١].

(٣) [المجموع: ٣/ ٤٣٤].

وأما دعاء المسألة في الجلسة بين السجدتين وبعد التشهد إذا قصد به الدعاء لا القراءة فجائز؛ لأنهما موضع سؤال، وما دام أن الدعاء القرآني مشروع في الركوع والسجود وهما موضع نهي عن القراءة إن قصدها، فلأن يشرع في هذه المواضع الثلاثة من باب أولىٰ.

المسألة السادسة : دعوات مأمور بها

ثمة أدعية قرآنية أمر الله تعالىٰ بها نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام ؛ فالآمر هو الله تعالىٰ الخالق المدبر العليم الرحيم، والمأمور هو أفضل الخلق ﷺ، وتوثيق ذلك وحفظه في أصدق كتاب وأوثقه.. فماذا بقي؟!

كلما مررت في القرآن بواحدة من هذه الدعوات المأمور بها حزنت كثيرا علىٰ عمر مضىٰ فرطت في الدعاء بها، ولا سيما حينما أقرأ القرآن فأمر بها ولا أنتبه لها، وأحزن أيضـًا أني لم أضمها إلىٰ الدعوات المطلقة التي أدعو بها؛ ولذا فإني أدعو نفسي والقراء الكرام إلىٰ العناية بهذه الدعوات، والإكثار منها، والدعاء بها حين المرور عليها في المصحف أثناء القراءة، تأسيا بالنبي عليه الصلاة والسلام فإنه كان لا يمر بآية سؤال إلا سأل.

وأي سؤال أعظم من دعوة علمها الله تعالىٰ نبيه عليه الصلاة والسلام وأمره بها؟! ولا يختار الله تعالىٰ لنبيه إلا أجمع الدعاء وأحسنه وأكمله. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ: يعجبني في الفريضة أن يدعو بما في القرآن(١).

وآمل من أئمة المساجد في صلاة التراويح الوقوف عندها والدعاء بما تضمنته؛ ففيه فائدة للإمام بنيل بركة الدعوة، وفيه تنبيه للمصلين خلفه بأهمية هذا الدعاء.

وهذه الدعوات المأمور بها في القرآن ست دعوات:

الدعوة الأولىٰ: قول الله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [سورة الإسراء:٢٤].

فهذه الآية في الأمر بالترحم علىٰ الوالدين، وفيها مسائل كثيرة، منها:

الأولىٰ: أن والدي النبي عليه الصلاة والسلام ماتا كافرين، ونهي عن الاستغفار لهما؛ ولذا جنح عدد من المفسرين إلىٰ القول بنسخ هذه الآية بآية التوبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن

(١) [سنن أبي داود:١/ ٢٣٤].

يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ [سورة التوبة:١١٣]، والقول بالنسخ مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما [١].

وقيل: ليست منسوخة وإنما هي عام مخصوص بالأبوين المسلمين بأدلة أخرىٰ [٢].

فيكون الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ويراد به أمته ممن والديهم مسلمون [٣].

وبناءً علىٰ ذلك فلا يخلو قارئ هذه الآية من حالات:

١- أن يكون أبواه مسلمين حيين كانا أم ميتين، فيدعو لهما بهذا الدعاء.

٢- أن يكون أبواه كافرين ماتا علىٰ الكفر، فلا يجوز أن يدعو لهما بهذا الدعاء.

٣- أن يكون أبواه كافرين حيين فالظاهر أنه لا مانع أن يدعو لهما به؛ لأن من مقتضيات رحمة الله تعالىٰ لهما هدايتهما؛ ولذا كان الهدىٰ رحمة، والضلال عدلا.

٤- أن يكون أحد أبويه مسلما والآخر كافرا، فيدعو بصيغة المفرد للمسلم دون الكافر. وقد سبق أن بينا في مقالة سابقة أن تغيير صيغة الدعاء القرآني من الإفراد إلىٰ الجمع والعكس كله جائز؛ لأنه يدعو ولا يقرأ.

قال أبو السعود رحمه الله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ [سورة الإسراء:٢٤]؛ برحمتك الدنيوية والأخرويةِ التي من جملتها الهدايةُ إلىٰ الإسلام فلا ينافي ذلك كفرَهما[٤].

الثانية: في الآية إيماء إلىٰ أن دعاء الولد لوالديه مستجاب؛ لأن الله تعالىٰ أمر به، ولا يأمر سبحانه به إلا لأنه يحبه ويرضاه، فكان حريًا بالإجابة.

ويؤيده قول النبي ﷺ، قَالَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[١]. فجعل دعاء الولد عملا لأبويه[٢].

---

(١) [تفسير الطبري: ١٧/ ٤٢٠، وتفسير البغوي: ٥/ ٨٦].

(٢) [تفسير الطبري: ١٧/ ٤٢٠، والتحرير والتنوير:١٥/ ٧٢].

(٣) [ينظر: تفسير النسفي: ٢/ ٢٥٣].

(٤) [تفسير أبي السعود: ٥/ ١٦٧].

الثالثة: أن الله تعالىٰ قبل هذا الدعاء أمر الولد برحمة والديه ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [سورة الإسراء:٢٤]، ولكن رحمة الولد فانية، فأحاله علىٰ الرحمة الباقية وهي رحمة الله تعالىٰ لهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [سورة الإسراء:٢٤] (٣).

وأيضاً: لأن رحمة الولد بهما لا تَفي بما قدّموه له، ولا ترد لهما الجميل، وليس البادئ كالمكافئ، فهم أحسنوا إليه بداية وهو يحسن إليهما ردّاً؛ لذلك ادع الله أن يرحمهما، وأن يتكفل سبحانه عنك برد الجميل، وأن يرحمهما رحمة تكافئ إحسانهما إليك(٤).

الرابعة: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ [سورة الإسراء:٢٤]، هذا أمر رباني، والأصل أن الأمر يقتضي الوجوب إلا بصارف. قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وظاهر الأمر لا يفيد التكرار فيكفي في العمل بمقتضىٰ هذه الآية ذكر هذا القول مرة واحدة، سئل سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: كم يدعو الإنسان لوالديه؟ أفي اليوم مرة أو في الشهر أو في السنة؟ فقال: نرجو أن يجزئه إذا دعا لهما في أواخر التشهدات كما أن الله تعالىٰ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ﴾ [سورة الأحزاب:٥٦]، فكانوا يرون أن التشهد يجزي عن الصلاة علىٰ النبي ﷺ، وكما أن الله تعالىٰ قال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [سورة البقرة:٢٠٣]، فهم يكررون في أدبار الصلوات(٥).

الخامسة: مربي اليتيم له ما للوالد من حق الدعوة لقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [سورة الإسراء:٢٤].

---

(١) [رواه مسلم ٣/ ١٢٥٥].

(٢) [ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/ ٧٢].

(٣) [ينظر: تفسير أبي حيان: ٧/ ٣٩].

(٤) [تفسير الشعراوي: ١٤/ ٨٤٦٦].

(٥) [تفسير الرازي: ٢٠/ ٣٢٧].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: وفهم من هذا أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولىٰ تربية الإنسان في دينه ودنياه تربية صالحة غير الأبوين فإن له علىٰ من رباه حق التربية[١].

وفي الآية بشرىٰ لمن رَبَّىٰ غير ولده، ولاسيما إنْ كان المربَّىٰ يتيمـًا، أو في حكم اليتيم[٢].

الدعوة الثانية: قول الله تعالىٰ : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [سورة الإسراء:٨٠].

للمفسرين عبارات كثيرة متنوعة في تفسير المدخل والمخرج، فمنهم من جعله الهجرة من مكة إلىٰ المدينة، وجاء فيه حديث ضعيف عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومنهم من جعله الدخول في القبر، وجعل الخروج: البعث، ومنهم من جعله الدخول في الطاعة والخروج منها، إلىٰ غير ذلك من الأقوال التي زادت علىٰ عشرة أقوال.

والصواب أن الآية عامة في كل مدخل ومخرج للعبد:

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: وقيل: الآية عامة في كل ما يتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة. فهي دعاء، ومعناه: رب أصلح لي وردي في كل الأمور[٣].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: أي: اجعل مداخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلىٰ مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقتها الأمر[٤].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: وذلك دعاء بكل دخول وخروج مباركين...وهذا السؤال يعم كل مكان يدخل إليه ومكان يخرج منه[٥].

---

(١) [تفسير السعدي: ٤٥٦].

(٢) [تفسير الشعراوي: ١٤/ ٨٤٦٧].

(٣) [١٠/ ٣١٣].

(٤) [٤٦٥].

(٥) [١٥/ ١٨٧].

والقول بالعموم كما هو ظاهر الآية يعطي قيمة كبيرة لهذه الدعوة، ويجعلها من أنفع الدعوات لمن دعا بها.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: ومدخل الصدق ومخرج الصدق هو المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامنًا علىٰ الله، وهو دخول وخروج بالله ولله، وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد؛ فإنه لا يزال داخلا في أمر وخارجا من أمر. فمتىٰ كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك كان قد أُدخل مدخل صدق، وأُخرج مخرج صدق والله المستعان[١].

وكذلك قيل في السلطان النصير أقوال عدة:

فقيل: الحجة.

وقيل: القوة والسيف والرياسة التي ينتصر بها الإسلام وينتشر، ونحو ذلك.

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: السلطان النصير يجمع الحجة والمنزلة عند الله، وهو كلماته الدينية والقدرية والكونية عند الله بكلماته الكونيات، ومعجزات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تجمع الأمرين؛ فإنها حجة علىٰ النبوة من الله وهي قدرية. وأبلغ ذلك القرآن الذي جاء به محمد ﷺ فإنه هو شرع الله وكلماته الدينيات، وهو حجة محمد ﷺ علىٰ نبوته ومجيئه من الخوارق للعادات فهو الدعوة وهو الحجة والمعجزة[٢].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: وعطف عليه سؤال التأييد والنصر في تلك المداخل والمخارج وغيرها من الأقطار النائية، والأعمال القائم بها غيره من أتباعه وأعدائه بنصر أتباعه وخذل أعدائه[٣].

---

(١) [حادي الأرواح: ١٠١].

(٢) [الفتاوىٰ: ١١/ ٣٢٤].

(٣) [١٥/ ١٨٧].

وتضمنت هذه الدعوة طلب السلطان والنصر اللدني، وهو أبلغ من العندي، فقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ ولم يقل (من عندك).

قال ابن القيم: فالسلطان النصير الذي من لدنه سبحانه: أخص وأقرب مما عنده...وهو الذي أيده به. والذي من عنده: نصره بالمؤمنين كما قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الأنفال:٦٢] (١) .

قلت: ولعل من ذلك نصره بالرعب مسيرة شهر، وما قذف الله تعالىٰ في قلوب أعداء أمته من خوف أمته والهيبة منهم، وهذا مشاهد فإن المسلمين ضعفاء متفرقون قد اجتمع كل الأعداء عليهم وتآمروا، ومع ذلك يخافونهم ويحتاطون لهم.

الدعوة الثالثة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِى عِلۡمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه:١١٤].

قيل فيها: زِدْني قرآنًا، وقيل: فهمًا، وقيل: حفظا.والصواب عموم العلم. والمقصود به علم الوحي وما يتصل به؛ فليس من شأن القرآن أن يحث الناس علىٰ التزود من علوم الدنيا؛ فإن طبيعة عيش الإنسان فيها تحتم عليه العلم بها لإصلاح معيشته، وقد ينسىٰ علم الآخرة الذي لا يُتوصل إليه إلا بالوحي، ولا شيء يدعوه إليه إلا الوحي. وقد قال الله تعالىٰ في وصف الكفار ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [سورة الروم:٧].

فالعلم بالآخرة هو العلم الرباني الذي لا سبيل إليه إلا بالوحي، والعلم بالدنيا هو العلم البشري الذي يتوصل إليه البشر بالبحث والتجربة والاكتشاف والاختراع، والفرق بين العلمين في الخيرية والبقاء والانتفاع أبعد مما بين السماء والأرض.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: فالعلم الذي أمره باستزادته هو علم الوحي لا علم الكلام والفلسفة والمنطق(٢).

---

(١) [المدارج: ٢/ ٤٤٥].

(٢) [الصواعق المرسلة: ٣/ ٨٧٧].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: والمراد بالعلم العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب علىٰ المكلف من أمر دينه[١].

وتحت هذه الآية فوائد عدة:

أولها: أنه نقل إلينا عمل النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذه الآية؛ كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا**»[٢].

الثانية: قيل: ما أمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم[٣]. ولو كان أحد يكتفي من العلم لاكتفىٰ منه موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ [سورة الكهف:٦٦][٤]، وكفىٰ بهذا شرفًا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه[٥].

الثالثة: قال ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتىٰ توفاه الله عَزَّ وَجَلَّ[٦].

ويؤيد ذلك حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ تَابَعَ الْوَحْيَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ، حَتَّىٰ تُوُفِّيَ، وَأَكْثَرُ مَا كَانَ الْوَحْيُ يَوْمَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**»[٧]، والوحي هو أعظم العلم.

الرابعة: في الآية تربية للمتعلم علىٰ البراءة من الحول والطول والذكاء والفهم وقوة الحفظ، والاستعانة بالله تعالىٰ وسؤاله زيادة العلم مع بذل الأسباب في تحصيله.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: العلم ليس هو بكثرة الرواية، ولكنه نور يقذفه الله تعالىٰ في القلب، وشرطه الاتباع، والفرار من الهوىٰ والابتداع[١]..

---

(١) [فتح الباري: ١/ ١٤١].

(٢) [رواه الترمذي: ٣٥٩٩، وصححه الألباني في الصحيحة: ٣١٥١].

(٣) [تفسير النسفي: ٢/ ٣٨٥].

(٤) [أدب الدنيا والدين: ٧٤].

(٥) [مفتاح دار السعادة:١/ ٥٠].

(٦) [تفسير ابن كثير: ٥/ ٣١٩].

(٧) [رواه مسلم: ٣٠١٦].

الخامسة: في الآية إرشاد للمتعلم أن لا يتجاوز علما حتىٰ يتقنه، ولا يتعجل في جمع العلوم علىٰ حساب الإتقان والتحقيق والتدقيق، ويؤخذ ذلك من أن الأمر بسؤال زيادة العلم جاء تعقيبا علىٰ النهي عن العجلة في تلقي الوحي ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [سورة طه:١١٤].

وذلك أن غاية طلب العلم للمتعلم نيل مرضاة الله تعالىٰ بالعمل به، ونفع غيره بما علم، لا المكاثرة فيه، أو التباهي به. ولذا كان الصحابة ﷺ يمكثون السنين في تعلم سورة واحدة ولا يتجاوزونها إلا بعد معرفة ما فيها من العلم والعمل.

السادسة: في الآية حث علىٰ الرجوع عن الخطأ إلىٰ الصواب وعدم الاستنكاف منه؛ لأن العبد ما دام مأمورًا بسؤال زيادة العلم فهو يجهل شيئا منه، فإذا تزود منه وعلم ما يجهل؛ علم خطأ ما كان يظن من قبل ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [سورة الإسراء:٨٥].

قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: الإنسان لا يزال يطلب العلم والإيمان، فإذا تبين له من العلم ما كان خافيا عليه اتبعه وليس هذا مذبذبا؛ بل هذا مهتد زاده الله هدىٰ(٢).

السابعة: في الأمر بهذا الدعاء المبارك رد علىٰ غلاة الصوفية والروافض الذين يدعون قائلين (اللهم زدني حيرة فيك) وينسبون ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: هذا...من الأحاديث المكذوبة علىٰ النبي ﷺ ولم يروه أحد من أهل العلم بالحديث وإنما يرويه جاهل أو ملحد؛ فإن هذا الكلام يقتضي أنه كان حائرا وأنه سأل الزيادة في الحيرة وكلاهما باطل؛ فإن الله هداه بما أوحاه إليه وعلمه ما لم يكن يعلم، وأمره بسؤال الزيادة من العلم...فمن يهدي الخلق كيف يكون حائرا؟ والله قد ذم الحيرة في القرآن...وفي الجملة فالحيرة من جنس الجهل والضلال، ومحمد ﷺ أكمل

---

(١) [السير: ١٣/ ٣٢٣].

(٢) [الفتاوىٰ: ٢٢/ ٢٥٣].

الخلق علما بالله وبأمره، وأكمل الخلق اهتداء في نفسه وهديا لغيره، وأبعد الخلق عن الجهل والضلال[١].

الدعوة الرابعة: قول الله تعالىٰ: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [سورة المؤمنون:٩٣-٩٤].

هذا وعيد بعذاب المشركين، وفيه إيماء إلىٰ أن النبي ﷺ سيرىٰ عذابهم، وقد رآه في بدر. وهو دعاء صالح لكل مؤمن إذا خاف أن ينزل العذاب بالعصاة والمكذبين أن يسأل الله تعالىٰ إن حضر عذابهم أن ينجيه فلا يكون من الظالمين المعذبين.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: يقول تعالىٰ آمرا نبيه محمدا ﷺ أن يدعو هذا الدعاء عند حلول النقم: (رب إما تريني ما يوعدون) أي: إن عاقبتهم وإني شاهد ذلك فلا تجعلني فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه: «**وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون**»[٢].

وهذا الدعاء فيه استصحاب الخشية والتحذير من الأمر المعذب من أجله ثم نظيره لسائر الأمة دعاء في جودة الخاتمة[٣].

الدعوة الخامسة: قول الله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة المؤمنون:٩٧-٩٨].

والهمز حقيقته: الضغط باليد والطعن بالإصبع ونحوه، ويستعمل مجازا بمعنىٰ الأذىٰ بالقول أو بالإشارة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [سورة القلم:١١]، وقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ [سورة الهمزة:١][٤].

---

(١) [الفتاوىٰ: ١١/ ٣٨٤].

(٢) [تفسير ابن كثير: ٥/ ٤٩٢].

(٣) [تفسير ابن عطية: ٤/ ١٥٥].

(٤) [التحرير والتنوير: ١٨/ ١٢١].

فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلىٰ القلب، فقيل: نزغاتهم ووساوسهم وقيل: نفخهم ونفثهم، وقيل: خنقهم... وقد يقال -وهو الأظهر- إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعا خاصا، كنظائر ذلك[١].

وقد جاء في السنن أن النبي عليه الصلاة والسلام تعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه، وأرشد إلىٰ ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا فَزِعَ أَحَدُكُمْ فِي النَّوْمِ فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ»[٢].

وأُمر ﷺ أن يستعيذ بالله تعالىٰ من حضورهم ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة المؤمنون:٩٨].

قيل: في أموري. وقيل: عند تلاوة القرآن، وقيل: عند النزع والسياق، فأمره أن يستعيذ من نوعي شر إصابتهم له بالهمز وقربهم ودنوهم منه. فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه[٣].

قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة المؤمنون:٩٨]؛ أي: في شيء من أمري؛ ولهذا أمر بذكر الله تعالىٰ في ابتداء الأمور -وذلك مطردة للشياطين- عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور[٤].

ومن دعاء النبي عليه الصلاة والسلام: «وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ»[٥].

---

(١) [إغاثة اللهفان: ١/ ٩٥].

(٢) [رواه الترمذي وقال: حَسَنٌ غَرِيبٌ: ٣٨٩٣].

(٣) [إغاثة اللهفان: ١/ ٩٥-٩٦].

(٤) [تفسير ابن كثير: ٥/ ٤٩٢].

(٥) [رواه أبو داود: ١٥٥٢].

ويكون أمر الله تعالىٰ نبيه عليه الصلاة والسلام بالتعوذ من همزات الشياطين مقتضيا تكفل الله تعالىٰ بالاستجابة(١).

وأحسب أن الأمر بالتعوذ المأمور به في المعوذتين هو مثل الأمر بالتعوذ في هاتين الآيتين، ولكن في المعوذتين بسط لما يتعوذ منه، فلا أطيل بذكرها لشهرتها، ومعرفة الناس بها.

الدعوة السادسة: قول الله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ [سورة المؤمنون:١١٨].

الأمر بهذا الدعاء مسبوق بذكر مآل السعداء ومآل الأشقياء في الآخرة، وأن السعداء قد أثنىٰ الله تعالىٰ عليهم بأنهم كانوا يدعون بهذا الدعاء ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾ [سورة المؤمنون:١٠٩].

وهذا يفيد أن من أراد النجاة والسعادة في الآخرة فليكثر من هذا الدعاء، حتىٰ يكون يوم القيامة من الفريق المثنىٰ عليهم بقول ذلك.

وهي دعوة وجيزة عظيمة تضمنت طلب المغفرة والرحمة، **قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ**: هذا إرشاد من الله إلىٰ هذا الدعاء(٢).

والمغفرة: ستر الذنوب بعفو الله تعالىٰ وحلمه حتىٰ لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها، والرحمة صفة الله التي اشتق لنفسه منها اسمه الرحمن، واسمه الرحيم، وهي صفة تظهر آثارها في خلقه الذين يرحمهم... ولا شك أن رحمة الله تخالف رحمة خلقه، كمخالفة ذاته وسائر صفاته لذواتهم وصفاتهم(٣).

وفي هذه الآية: أهمية هذه الدعوة؛ لأن الله تعالىٰ أمر بها نبيه عليه الصلاة والسلام وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

---

(١) [التحرير والتنوير: ١٨/ ١٢١].

(٢) [٥/ ٥٠٢].

(٣) [أضواء البيان:٥/ ٣٦٥].

وهي دعوة مرجوة الإجابة؛ لأن أمره سبحانه بأن يدعو بذلك يتضمن وعدا بالإجابة[١].

وفي ختمها بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة المؤمنون:١١٨] دليل علىٰ أن غيره سبحانه يرحم ولكنه خير الراحمين؛ لأن رحمة غيره من رحمته سبحانه؛ كما دل علىٰ ذلك حديث سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ بِهَا يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ» [٢].

وأيضـًا: كان سبحانه خير الراحمين؛ لأن رحمته إذا أدركت أحداً أغنته عن رحمة غيره، ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته ﷻ[٣].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ، وَأَنْتَ الْأَعَزُّ الْأَكْرَمُ»[٤].

- وبقي دعوةٌ أَمَرَ الله تعالىٰ بها نبيه نوحا عليه السلام لما ركب الفلك، قال تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة المؤمنون:٢٩]، ولعل الكلام عليها يأتي إن شاء الله تعالىٰ في دعوات الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) [التحرير والتنوير ١٨/ ١٣٧].

(٢) [رواه مسلم: ٢٧٥٣].

(٣) [تفسير النسفي: ٢/ ٤٨٥].

(٤) [رواه ابن أبي شيبة: ١٥٥٧٠].

المسألة السابعة : الدعاء بالموافاة علىٰ الكفر أو المعصية

في قصتي نوح وموسىٰ عليهما السلام جاءت آيات فيها دعاؤهما علىٰ الكفار من أقوامهما بعدم الإيمان، والبقاء علىٰ الكفر، بل والزيادة فيه.

١- ففي قصة نوح عليه السلام حكىٰ الله تعالىٰ عنه أنه قال: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة نوح:٢٤] ؛ فدعا عليهم بزيادة الضلال.

٢- وفي قصة موسىٰ عليه السلام، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة يونس:٨٨]، فدعا عليهم بالشد علىٰ قلوبهم، وقد قيل فيه: اطبع عليها، وقيل: أهلكهم كفاراً، وقيل: اشدد عليها بالضلالة، وقيل: قسِّ قلوبهم[(١)].

فأما دعوة نوح علىٰ قومه بزيادتهم في الضلال فنفىٰ ابن عاشور أن يكون المقصود به الضلال الذي ضد الهداية؛ لأنه يعارض دعوة نوح أصلا، فحمله علىٰ العذاب؛ لأن الضلال مسببه، ويحتمل: ولا تزد في دعائهم فإن ذلك لا يزيدهم إلا ضلالا، فالزيادة منه تزيدهم كفرا وعنادا[(٢)].

وقال السعدي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم بحق، لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالا، أي: فلم يبق محل لنجاحهم ولا لصلاحهم[(٣)].

وأما دعوة موسىٰ عليه السلام ففيها مسائل عدة:

---

(١) [زاد المسير: ٢/ ٣٤٦].

(٢) [التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢١١].

(٣) [٨٨٩].

الأولىٰ: جواز ذكر جرائم المدعو عليه، وتعداد نعم الله تعالىٰ عليه، فموسىٰ عليه السلام ذكر في دعوته أن الله تعالىٰ أنعم علىٰ فرعون وملئه نعما، وما زادهم ذلك إلا ضلالا وإضلالا.

الثانية: أن الله تعالىٰ يعلم ما ذكره موسىٰ من نعمه علىٰ فرعون، ومن طغيان فرعون وإضلاله عن الحق، وليس ذكر موسىٰ له لإخبار الله تعالىٰ به وهو علام الغيوب، وإنما هو توطئة للدعاء. فمن دعا علىٰ ظالم جاز له أن يوطئ دعاءه بذكر جرائم المدعو عليه، ونعمة الله تعالىٰ عليه، وهي حرقة في قلب الداعي يجدها؛ ليؤكد سبب دعائه عليه.

الثالثة: اختلف المفسرون في لام ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ [سورة يونس:٨٨]؛ علىٰ أقوال كثيرة، أصحها أنها لام العاقبة والصيرورة كما رجحه القرطبي وابن عاشور.

أي: لما كان عاقبة أمرهم إلىٰ الضلال صار كأنه أعطاهم ليضلوا.

الرابعة: هل يجوز الدعاء علىٰ كافر بالبقاء علىٰ الكفر أو الزيادة فيه؛ ليكون عذابه يوم القيامة أشد، أو علىٰ ظالم أو عاص بزيادة الظلم أو المعصية أو بلوغ الكفر، أو عدم التوفيق للتوبة والهداية. ونسمع أحيانا من يدعو علىٰ كافر أو ظالم فيقول: الله لا يهديه.

وهذه مسألة كبيرة لا من جهة المنقول فيها وتحقيقه، ولا من جهة أهميتها في باب الدعاء.

والأقوال في ذلك يمكن حصرها في أربعة:

القول الأول: جواز ذلك في الكافر والعاصي؛ استدلالا بدعوة موسىٰ علىٰ فرعون، فإنه قال: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [سورة يونس:٨٨]، فعامة المفسرين يرون أنها دعوة عليهم بمنعهم الإيمان، والطبع علىٰ قلوبهم وتقسيتها. إلا ابن عاشور فيرىٰ أن ﴿وَٱشۡدُدۡ﴾ [سورة يونس:٨٨]؛ من الشد، أي: أدخل الشدة في قلوبهم، فتكون دعوة بالهموم والأنكاد والأحزان، لا بمنع الإيمان. ثم قال: وهذا حرص منه عليه السلام علىٰ وسائل هدايتهم رجاء أنهم إذا زالت عنهم النعم وضاقت صدورهم بكروب الحياة تفكروا في سبب ذلك، فعجلوا بالنوبة إلىٰ الله كما هو معتاد النفوس

الغافلة، وبهذا يظهر أن موقع الفاء في قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة يونس:٨٨] أن تكون فاء السببية في جواب الدعاء، أي: افعل بهم ذلك ليؤمنوا(١).

وبناء علىٰ كلام ابن عاشور فإنه يصبح دعاء لمصلحتهم، وعليه فلا تكون الآية دليلا علىٰ جواز الدعاء ببقاء الكافر علىٰ كفره، خلافا لجمهور المفسرين.

ومما يستدل به علىٰ جواز الدعاء باستدامة الكافر علىٰ كفره ليعذب به، بل وزيادته في الكفر دعوة نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة نوح:٢٤].

وكذلك دعوة النبي ﷺ علىٰ المشركين يوم الخندق، فَقَالَ:«مَلَأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ نَارًا، كَمَا شَغَلُونَا عَنْ صَلاَةِ الوُسْطَىٰ حَتَّىٰ غَابَتِ الشَّمْسُ» (٢)، وهذه الدعوة تستلزم بقاءهم علىٰ الكفر، وعدم التوبة منه.

هذا في الكافر، وأما في المسلم فما ثبت أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه دعا علىٰ أبي سعدة لما كذب عليه بأن يُفتن، والفتنة نقص في الدين، فقال: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالفِتَنِ، وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ» (٣).

قال ابن علان تعليقًا علىٰ الحديث: ففيه جواز الدعاء علىٰ الظالم بالفتنة في دينه. ثم ساق قول ابن المنير: وكان في النفس من ذلك شيء، وذلك أن الدعاء بمثله مستلزم وقوع المعاصي، حتىٰ تأملت هذا الحديث فوجدته سائغًا. والسبب فيه أن وقوع المعاصي لم يطلب من حيث كونها معاصي، لكن من حيث ما فيها من نكاية الظالم وعقوبته، كما أبيح تمني الشهادة، وندب مع أن فيه تمني قتل الكافر المسلم وذلك معصية ووهن في الدين؛

---

(١) [١١/ ٢٧٠-٢٧١].

(٢) [رواه البخاري:٦٣٩٦، ومسلم: ٦٢٧].

(٣) [رواه البخاري: ٧٥٥].

وذلك لأن الغرض من تمني الشهادة ثوابها لأنفسها، ووجدت في دعوات الأنبياء كقول موسىٰ: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة يونس:٨٨]. وقول نوح: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة نوح:٢٤] (١).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وفيه جواز الدعاء علىٰ الظالم المعين بما يستلزم النقص في دينه، وليس هو من طلب وقوع المعصية ولكن من حيث إنه يؤدي إلىٰ نكاية الظالم وعقوبته(٢).

ويجاب عن دعوة النبيين نوح وموسىٰ ومحمد عليهم الصلاة والسلام بأنهم قد علموا أن المدعو عليهم لا يؤمنون، فهم لا ينطقون في شيء من الشرع إلا بوحي.

وقد يعترض علىٰ ذلك في دعاء النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأن بعض من حضر الخندق ممن دعا عليهم قد أسلموا بعد ذلك.

فيجاب: بأنه عام في المشركين لكنه مخصوص بمن يبقون علىٰ كفرهم، ويتأيد بحديث سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللهِ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو عَلَىٰ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [سورة آل عمران:١٢٨]»(٣) فالله تعالىٰ لم يقره علىٰ هذه الدعوة، بينما أقره علىٰ دعائه علىٰ مشركي الخندق.

قال القرطبي تعليقًا علىٰ دعوة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: وقد استشكل بعض الناس هذه الآية فقال: كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء إيمان قومهم، فالجواب: أنه لا يجوز أن يدعو نبي علىٰ قومه إلا بإذن من الله، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن(٤).

---

(١) [دليل الفالحين: ٧/ ٣٢٠].

(٢) [فتح الباري ٢/ ٢٤١].

(٣) [رواه البخاري:٤٠٧٠].

(٤) [٨/ ٣٧٥].

وقال النسفي: وإنما دعا عليهم بهذا لما أيس من إيمانهم وعلم بالوحي أنهم لا يؤمنون فأما قبل أن يعلم بأنهم لا يؤمنون فلا يسع له أن يدعو بهذا الدعاء لأنه أرسل إليهم ليدعوهم إلىٰ الإيمان(١).

القول الثاني: أن ذلك يختلف بقصد الداعي، فإن قصد الانتقام من المدعو عليه؛ لأنه آذاه جاز أن يدعو عليه بالكفر والمعصية. وإن قصد محبة الكفر أو المعصية كان محرما أو كفرا.

ففي المذهب الحنفي نقل شاه الكشميري من بعض كتب الأحناف عن أبي حنيفة: أن أحداً لو كان كافراً مؤذيـًا للمسلمين إيذاءاً شديداً فدعاء موته والرضا بأن يموت كافراً ليعذب بالنار لما يؤذي المسلمين لا بأس به(٢).

وفي المذهب الشافعي نقل البقاعي عن الحليمي: وإذا تمنىٰ مسلم كفر مسلم فهذا علىٰ وجهين:

أحدهما: أن يتمناه له كما يتمنىٰ الصديق لصديقه الشيء يستحسنه فيحب أن يكون له فيه نصيب، فهذا كفر؛ لأن استحسان الكفر كفر.

والآخر: أن يتمناه له كما يتمنىٰ لعدوه الشيء يستفظعه، فيحب أن يقع فيه، فهذا ليس بكفر. تمنىٰ موسىٰ صلوات الله عليه وسلامه بعد أن أجهده فرعون ألا يؤمن فرعون وملأه ليحق عليهم العذاب، وزاد علىٰ ذلك أن دعا الله تبارك وتعالىٰ فلم ينكر تعالىٰ ذلك عليه؛ لعلمه أن شدته علىٰ فرعون وغلظته عليه لما رآه من عتوه وتجبره هي التي حملته علىٰ ذلك، فمن كان في معناه فله حكمه(٣).

---

(١) [تفسير النسفي: ٢/ ٣٨].

(٢) [العرف الشذي: ٤/ ٢٧٥].

(٣) [نظم الدرر: ٩/ ١٨١].

وقال النووي: لو قال لمسلم: سلبه الله الإيمان، أو لكافر: لا رزقه الله الإيمان، فليس بكفر؛ لأنه ليس رضىٰ بالكفر، لكنه دعا عليه بتشديد الأمر والعقوبة عليه[١].

لكن النووي رغم أنه يقول: إنه ليس بكفر فإنه يحرمه، قال في الأذكار: لو دعا مسلمٌ علىٰ مسلمٍ فقال : اللهم اسلبه الإيمان ؛ عصىٰ بذلك . وهل يكفر الداعي بمجرد هذا الدعاء؟ فيه وجهان لأصحابنا، حكاهما القاضي حسين من أئمة أصحابنا في الفتوىٰ، أصحهما: لا يكفر . وقد يحتج لهذا بقول الله تعالىٰ إخباراً عن موسىٰ عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ [سورة يونس:٨٨] الآية. وفي هذا الاستدلال نظر وإن قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا [٢].

وهذا القول يلتقي مع القول الأول؛ لأن أصحاب القول الأول لا يعقل أنهم يجيزون ذلك بإطلاق، وإنما إذا كان قصد الداعي الانتقام من المدعو عليه، لكني أفردته لأن أصحابه لم يبينوا ذلك بل أطلقوا، إلا ما ألمح إليه ابن المنير.

القول الثالث: تحريم ذلك؛ لأن الدعاء باستدامة الكفر أو المعصية أو إحداثهما فيه الرضا بأن يعصىٰ الله تعالىٰ. وهو قول القرافي، فإنه قال: وحيث قلنا بجواز الدعاء علىٰ الظالم فلا تدعو عليه بملابسة معصية من معاصي الله تعالىٰ ولا بالكفر فإن إرادة المعصية معصية وإرادة الكفر كفر[٣]. وسبق أيضاً إيراد قول النووي في الأذكار.

القول الرابع: التفريق بين الكافر والمؤمن، وهو قول شهاب الدين النفراوي من المالكية، قال في الفواكه الدواني: اختلف في جواز الدعاء علىٰ المسلم العاصي بسوء الخاتمة:

---

(١) [روضة الطالبين:١٠/ ٦٥].

(٢) [الأذكار: ٣٥٩-٣٦٠].

(٣) [الفروق: ٤/ ٢٩٤].

قال ابن ناجي: أفتىٰ بعض شيوخنا بالجواز محتجاً بدعاء موسىٰ علىٰ فرعون... والصواب عندي أنه لا يجوز وليس في الآية ما يدل علىٰ الجواز؛ لأنه فرق بين الكافر المأيوس من إيمانه كفرعون وبين المؤمن العاصي المقطوع له بالجنة إما ابتداء أو بعد عذاب[١].

والذي تميل النفس إليه أنه لا يجوز الدعاء علىٰ كافر باستدامة كفره، ولا علىٰ عاص باستدامة عصيانه أو انزلاقه للكفر؛ لأن لازم ذلك أن الداعي يدعو ببقاء الكفر والعصيان، وهو مأمور بإزالتهما بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما ما استدل المجيزون به من دعوة الرسل نوح وموسىٰ ومحمد ﷺ علىٰ أقوامهم -فلو سلمت من الاعتراض من جهة المعنىٰ- فلعلمهم أنهم لا يؤمنون، وهم مؤيدون بالوحي.

وأما دعوة سعد ﷺ علىٰ أبي سعدة فالذي يظهر لي أن فيها إظهارا لبراءة سعد؛ وذلك من جهة أنا أبا سعدة كذب علىٰ سعد، وتناقل الناس كذبته، ووقعت في قلوب بعض الناس، فتعرض أبي سعدة للفتنة بسبب دعوة سعد فيها كشف لحقيقته، وإظهار كذبه علىٰ سعد، وإثبات عدم عدالته؛ فإن الكذاب قد يكون ظاهره العدالة فيصدقه الناس إن رمىٰ بريئا، لكن إن تعرض لفتنة ففتن وقع فيما يخرم مروءته ويسقط عدالته فبان للناس كذبه، وهو ما دعا به سعد ﷺ فاستجيب له. والدعاء بالفتنة هو دعاء بالامتحان والابتلاء، وقد ينجو ولا يفتتن، وفرق بينه وبين الدعاء بالمعصية. ولذا فإن سعدًا ﷺ ما قال: اللهم افتنه، وإنما قال: عرضه للفتن.

وقد جاء عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**»[٢]. والدعاء باستدامة الكفر أو المعصية أو سلب للإيمان هي دعوة بإثم.

---

(١) [١/ ١٨٣].

(٢) [رواه مسلم: ٢٧٣٥].

لكن إن قصد مجرد الانتقام من عدوه فلا يعد ذلك كفرا ولو دعا عليه بالكفر، كما قرره النووي، وهو الظاهر من كلام القرافي.

وقال الشيخ ابن عثيمين: لو دعوت علىٰ شخص بسوء الخاتمة فإن الداعي لا يكفر، ولكن لا يجوز للإنسان أن يدعو علىٰ أخيه المسلم بهذا الدعاء الشنيع بسوء الخاتمة؛ لأن سوء الخاتمة والعياذ بالله يعني أن يموت علىٰ غير الإسلام[١].

---

(١) [الباب المفتوح: ١٦٥/ ٩، بترقيم الشاملة آليا].

المسألة الثامنة : المرور بآيات التسبيح والسؤال والتعوذ

القرآن الكريم مملوء بأدعية الثناء والسؤال، ومملوء بآيات الوعد التي تستخرج السؤال، وآيات الوعيد التي تستخرج التعوذ. ومن دلائل التدبر في قراءة القرآن الوقوف عند هذه الآيات للسؤال والتعوذ والتسبيح ونحوه، وصيغ ذلك في القرآن منوعة، منها:

١- أن تأتي بالأمر الصريح نحو قول الله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [سورة النمل:٩٣]، ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [سورة الواقعة:٧٤]، ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [سورة الأعلى:١].

٢- أن تأتي في معرض الثناء علىٰ قائل ذلك، كما في الثناء علىٰ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [سورة الرعد:٢٨]، والثناء علىٰ عباد الرحمن ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾ [سورة الفرقان:٦٥].

٣- أن تأتي في معرض ذم من لا يفعله، كما قال تعالىٰ في المنافقين: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [سورة النساء:١٤٢]. وقد ورد أن ذلك في الصلاة، كما في حديث أنس ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**»(١).

وإذا كان لا يذكر الله تعالىٰ إلا قليلا في الصلاة وهي موطن الذكر فأولىٰ أن لا يذكر الله تعالىٰ خارجها. وإذن فكثرة قراءة القرآن، والوقوف عند آيات التسبيح والسؤال والتعوذ للامتثال مما يجعل المؤمن من الذاكرين، فيبتعد عن النفاق، فليحرص عليه قارئ القرآن.

٤- أن تأتي إخبارا بتسبيح الخلق لله تعالىٰ كما في تسبيح الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [سورة الأنبياء:٢٠]، ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ

---

(١) [رواه مسلم: ٦٢٢].

بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة غافر:٧]. وتسبيح جميع الكائنات ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء:٤٤]، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [سورة الحديد:١].

والكلام عن ذلك منتظم في مسائل عدة:

المسألة الأولىٰ: فعل ذلك خارج الصلاة. وهذا لا إشكال فيه البتة، ولا أعلم أن أحدا منعه.

ومن فوائده:

التدبر، والدعاء، إضافة إلىٰ القراءة، وكل واحدة منها عبادة. وقد جاء عن عمر بن الخطاب ﷺ في قول الله تعالىٰ: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [سورة البقرة:١٢١]، قال: إذا مرَّ بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار[١].

المسألة الثانية: فعله داخل الصلاة. ووردت فيه أحاديث صحيحة؛ كحديث حذيفة ﷺ في وصف قيام النبي عليه الصلاة والسلام وقد صلىٰ معه، قال:«**يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ**»[٢].

وفي رواية النسائي:«**لَا يَمُرُّ بِآيَةِ تَخْوِيفٍ أَوْ تَعْظِيمٍ لِلَّهِ ﷻ إِلَّا ذَكَرَهُ**»[٣].

وكذلك حديث عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ قال:«**قُمْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَبَدَأَ فَاسْتَاكَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ فَبَدَأَ فَاسْتَفْتَحَ مِنَ الْبَقَرَةِ، لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ وَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ يَتَعَوَّذُ**»[٤].

ومع ذلك اختلف العلماء في موضع هذه الأحاديث علىٰ أقوال:

الأول: ذهب الأحناف إلىٰ أنه مندوب للمنفرد فقط، دون الإمام والمأموم، فهو بدعة في حقهما[١].

---

(١) [رواه ابن أبي حاتم: ١١٦٠].

(٢) [رواه مسلم: ٧٧٢].

(٣) [١١٣٣].

(٤) [رواه النسائي: ١١٣٢].

قال الكاساني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: وأما الإمام في الفرائض فيكره له ذلك؛ لأن النبي ﷺ لم يفعله في المكتوبات وكذا الأئمة بعده إلىٰ يومنا هذا فكان من المحدثات؛ ولأنه يثقل علىٰ القوم وذلك مكروه، ولكن لا تفسد صلاته؛ لأنه يزيد في خشوعه والخشوع زينة الصلاة، وكذا المأموم يستمع وينصت؛ لقوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [سورة الأعراف:٢٠٤].اهـ[٢] .

وفي حاشية ابن عابدين منع الإمام منه في التراويح؛ لئلا يثقل علىٰ المأمومين، ومنع المأمومين منه؛ لأن وظيفتهم الاستماع للقرآن، وحصر حديث حذيفة بالصورة التي مثله وهي اقتداء واحد أو اثنين بإمام[٣].

الثاني: أنه مندوب في النافلة دون الفريضة؛ لأن الحديث فيها، وهو قول ابن قدامة من الحنابلة.

قال: ويستحب للمصلي نافلة إذا مرت به آية رحمة أن يسألها، أو آية عذاب أن يستعيذ منها؛ لما روىٰ حذيفة...ولا يستحب ذلك في الفريضة؛ لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ في فريضة، مع كثرة من وصف قراءته فيها [٤].

ومشايخنا يقولون بقول ابن قدامة؛ ففي فتاوىٰ اللجنة الدائمة: إن كانت القراءة في الفريضة فالسنة ترك ذلك؛ لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ فيما نعلم. أما إن كانت الصلاة نافلة كالتهجد في الليل فيستحب للقارئ أن يقف عند آية الرحمة فيسأل، وعند آية العذاب فيتعوذ، وعند آية التسبيح فيسبح[٥].

---

(١) كما نص علىٰ ذلك الطحطاوي في حاشيته علىٰ المراقي [١/ ١٢٢].

(٢) [بدائع الصنائع: ١/ ٢٣٥].

(٣) [١/ ٥٤٥].

(٤) [المغني: ١/ ٣٩٤].

(٥) [٥/ ٣١٠].

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: والراجح في حكم هذه المسألة أن نقول: أما في النفل - ولا سيما في صلاة الليل- فإنه يسن له أن يتعوذ عند آية الوعيد، ويسأل عند آية الرحمة؛ اقتداء برسول الله ﷺ، ولأن ذلك أحضر للقلب وأبلغ في التدبر، وصلاة الليل يسن فيها التطويل، وكثرة القراءة والركوع والسجود، وما أشبه ذلك.

وأما في صلاة الفرض فليس بسنة وإن كان جائزا....الدليل علىٰ هذا أن الرسول ﷺ كان يصلي في كل يوم وليلة ثلاث صلوات، كلها جهر فيها بالقراءة، ويقرأ آيات فيها وعيد وآيات فيها رحمة، ولم ينقل الصحابة الذين نقلوا صفة صلاة الرسول ﷺ أنه كان يفعل ذلك في الفرض، ولو كان سنة لفعله ولو فعله لنقل، فلما لم ينقل علمنا أنه لم يفعله، ولما لم يفعله علمنا أنه ليس بسنة، والصحابة رضي الله عنهم حريصون علىٰ تتبع حركات النبي ﷺ وسكناته حتىٰ إنهم كانوا يستدلون علىٰ قراءته في السرية باضطراب لحيته، ولما سكت بين التكبير والقراءة سأله أبو هريرة ماذا يقول؟ ولو كان يسكت عند آية الوعيد من أجل أن يتعوذ، أو آية الرحمة من أجل أن يسأل لنقلوا ذلك بلا شك[١].

فحاصل هذا القول أنه يجوز في الفرض؛ لأنه دعاء، والدعاء يشرع في الصلاة، لكنه ليس بسنة؛ لأنه لم ينقل فعله عن النبي عليه الصلاة والسلام.

الثالث: كراهيته في الفريضة، ومشروعيته في النافلة. وهو مذهب المالكية؛ ففي مختصر خليل: وكرها بفرض: كدعاء قبل قراءة وبعد فاتحة وأثناءها وأثناء سورة[٢]. وفي شرحه للخرشي قال: يعني: أنه يكره في هذه المواضع الدعاء كما تكره البسملة والتعوذ في الفرض، لكن قوله (وأثناءها وأثناء سورة) هو في الفرض، وأما في النفل فجائز[٣].

---

(١) [الشرح الممتع: ٣/ ٢٨٩-٢٩٠].

(٢) [ص: ٣٣].

(٣) [١/ ٢٩٠].

ونقل في منح الجليل عن الشامل عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: إن سمع مأموم ذكره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فصلىٰ عليه، أو ذكر الجنة فسألها، أو النار فاستعاذ منها فلا بأس ويخفيه، ولا يكثر[١].

الرابع: استحباب ذلك مطلقًا في الفرض والنفل، للإمام والمأموم والمنفرد، وهو قول الشافعية وبعض الحنابلة.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: قال الشافعي وأصحابنا: يسن للقارئ في الصلاة وخارجها إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله تعالىٰ الرحمة... ويستحب ذلك للإمام والمأموم والمنفرد... لأنه دعاء فاستووا فيه كالتأمين.

ثم قال: وقال بمذهبنا جمهور العلماء من السلف ممن بعدهم[٢].

وقال الحجاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وله السؤال والتعوذ في فرض ونفل، عند آية رحمة أو عذاب[٣].

وقد يقال إن الحنابلة لم ينصصوا علىٰ سنية ذلك في الفرض، وإنما قالوا بجوازه، فعاد قولهم إلىٰ القول السابق. ولكن ليس هذا هو الظاهر؛ لأنهم سووا بين الفرض والنفل في ذلك، فلا فرق عندهم بينهما.

وهذا القول هو قول الظاهرية، قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: ونستحب لكل مصل إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله تعالىٰ من فضله، وإذا مر بآية عذاب أن يستعيذ بالله ﷻ من النار[٤].

والقول الثاني هو أعدل الأقوال، وهو الموافق لسنة النبي ﷺ الفعلية والتركية، فيستحب في النافلة، ويشرع في الفريضة بلا استحباب، والسنة تركه.

---

(١) [منح الجليل ١/ ٢٦٦].

(٢) [المجموع: ٤/ ٦٦].

(٣) [الإقناع ١٣٢، وينظر: شرح المنتهىٰ: ١/ ٢١٢، والروض المربع: ١٠١].

(٤) [المحلىٰ: ٣/ ٣٣].

المسألة الثالثة: إذا صلىٰ النافلة كالتراويح خلف إمام، وكان الإمام يقف عند آيات السؤال فيسأل فيتبعه المأموم بالسؤال بلا إشكال، لكن إن كان الإمام لا يقف عند هذه الآيات كما هو حال أكثر أئمة المساجد في هذا الزمن، فهل للمأموم أن يخالف إمامه في ذلك فيسأل ويستعيذ ويسبح وإمامه مستمر في القراءة أم لا؟

الذي يظهر والله أعلم أنه لا يفعل ذلك إن كان يشغله عن الإنصات؛ لأنه تعارضت سنة السؤال والاستعاذة والتسبيح مع واجب الإنصات لقراءة الإمام، والإنصات أولىٰ.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: إن أدىٰ ذلك إلىٰ عدم الإنصات للإمام فإنه ينهىٰ عنه، وإن لم يؤد إلىٰ عدم الإنصات فإن له ذلك... لو كانت آية الوعيد في أثناء قراءة الإمام، فإن المأموم إذا تعوذ في هذه الحال والإمام لم يسكت انشغل بتعوذه عن الإنصات للإمام، وقد نهىٰ النبي ﷺ المأموم أن يقرأ والإمام يقرأ؛ إلا بأم القرآن[1].

المسألة الرابعة: المنصوص عليه في حديث حذيفة رضي الله عنه : التسبيح، والسؤال، والتعوذ، وفي حديث عوف بن مالك رضي الله عنه السؤال والتعوذ، فهل يقتصر عليها لورود النص فيها، أم يدخل معها ما كان مثلها كالاستغفار، والحوقلة، والتكبير، والتهليل، والصلاة علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام ؟!

الظاهر أنه يدخل فيها ما كان مثلها؛ لأن الاستغفار والحوقلة والصلاة علىٰ النبي دعاء فهي في معنىٰ السؤال المنصوص عليه، والتكبير والتهليل ثناء يشبه التسبيح المنصوص عليه، وكلاهما مشروع في الصلاة.

قال الإمام أحمد، في الإمام يقول: «**لا إله إلا الله** ». فيقول من خلفه: «لا إله إلا الله» يرفعون بها أصواتهم، قال: يقولون، ولكن يخفون ذلك في أنفسهم. قال ابن قدامة: وإنما لم يكره أحمد ذلك، كما كره القراءة خلف الإمام؛ لأنه يسير لا يمنع الإنصات، فجرىٰ مجرىٰ

---

(١) [الشرح الممتع: ٣/ ٢٨٧].

التأمين. قيل لأحمد: فإن رفعوا أصواتهم بهذا؟ قال: أكرهه. قيل: فينهاهم الإمام؟ قال: لا ينهاهم. قال القاضي: إنما لم ينههم؛ لأنه قد روي عن النبي ﷺ الجهر بمثل ذلك في صلاة الإخفاء، فإنه كان يسمعهم الآية أحيانا [١].

وقال ابن فرحون المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: إذا مر ذكر النبي ﷺ في قراءة الإمام فلا بأس للمأموم أن يصلي عليه[٢].

وقد سئل الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ عن الصلاة علىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا مرّ ذكره في آية أثناء الصلاة، فقال: أما في الفريضة فلا يفعل ذلك؛ لعدم نقله عن النبي ﷺ. وأما في النافلة فلا بأس؛ لأنه كان ﷺ في تهجده بالليل يقف عند كل آية فيها تسبيح فيسبح، وعند كل آية فيها تعوذ فيتعوذ، وعند كل آية فيها سؤال فيسأل. والصلاة عليه ﷺ من هذا الباب [٣].

المسألة الخامسة: هل للتسبيح والسؤال والتعوذ صيغة موقوتة؟

الأحاديث ورواياتها في أصل المسألة لم أقف فيها علىٰ صيغة معينة، فالظاهر أنه إذا أتىٰ بأي صيغة وافق السنة، والظاهر أنه لا مانع أن يطيل في السؤال أو التعوذ أو التسبيح ويكرره إذا كان يصلي وحده.

روىٰ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [سورة الشمس:٧-٨] وَقَفَ، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا وَخَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا») [٤].

قال ابن أبي عاصم في السنة: وهو في الصلاة كأنه القنوت[٥].

---

(١) [المغني: ٢/ ٤٤].

(٢) [مواهب الجليل: ١/ ٥٤٤].

(٣) [مجموع فتاواه:١١/ ٢٠١].

(٤) [رواه الطبراني: ١١١٩١، وحسنه الهيثمي والألباني].

(٥) [١/ ١٤٠].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [سورة الأعلى:١]، قَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ») [١].

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: يعني: قل سبحان ربي الأعلىٰ، وإلىٰ هذا ذهب جماعة من الصحابة والتابعين[٢].

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وكان ابن مسعود وابن عامر وابن الزبير يفعلون ذلك[٣].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: يستحب للقارئ إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلىٰ أن يقول عقبه: سبحان ربي الأعلىٰ، قاله النبي ﷺ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين[٤].

المسألة السادسة: جواب الآيات التي تختم باستفهام؟

وهي علىٰ نوعين:

الأول: ما ورد فيه أحاديث أو آثار عن السلف.

الثاني: ما لم يرد فيه شيء.

ومن النوع الأول:

١- عَنْ جَابِرٍ قَالَ: (خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا فَسَكَتُوا، فَقَالَ: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الجِنِّ لَيْلَةَ الجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [سورة الرحمن:١٣] قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ

---

(١) [رواه أحمد: ٢٠٦٦، وصحح محققو المسند الموقوف، وصحح الحاكم والألباني المرفوع].

(٢) [تفسير البغوي: ٨/ ٣٩٦].

(٣) [٥/ ٤٦٨].

(٤) [٢٠/ ١٣].

نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الحَمْدُ»)[١] ، والحديث مُعلّ بزهير بن محمد، فهو منكر الحديث كما قال الأئمة أحمد والبخاري والذهبي[٢].

وصححه الحاكم وحسنه الألباني[٣].

٢- حديث أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ [سورة التين:١]، فَانْتَهَىٰ إِلَىٰ آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [سورة التين:٨]، فَلْيَقُلْ: بَلَىٰ، وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [سورة القيامة:١]، فَانْتَهَىٰ إِلَىٰ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [سورة القيامة:٤٠]، فَلْيَقُلْ: بَلَىٰ، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [سورة المرسلات:١]، فَبَلَغَ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ [سورة المرسلات:٥٠]، فَلْيَقُلْ: آمَنَّا بِاللهِ»[٤].

وهذا الحديث مُعلّ بالاضطراب، وبجهالة الراوي عن أبي هريرة ﷺ[٥].

٣- حديث مُوسَىٰ بْنِ أَبِي عَائِشَةَ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَوْقَ بَيْتِهِ، وَكَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [سورة القيامة:٤٠]، قَالَ: «سُبْحَانَكَ» ، فَبَكَىٰ، فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[٦].

وبهذه الأحاديث أخذ فقهاء المالكية والشافعية والحنابلة، فالمالكية يقولون بالجواز، والشافعية والحنابلة يقولون بالاستحباب[٧] .

---

(١) [رواه الترمذي: ٣٢٩١، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ الوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ].

(٢) [ينظر: سنن الترمذي: ٣٢٩١، وميزان الاعتدال: ٢/ ٨٥].

(٣) [المستدرك: ٢/ ٤٧٣، والسلسلة الصحيحة: ٢١٥٠].

(٤) [رواه أبو داود: ٨٨٧].

(٥) تنظر طرقه في: علل الدارقطني: ١١/ ٢٤٧، ومسند أحمد، نسخة الرسالة: ١٢/ ٣٥٣.

(٦) [رواه أبو داود: ٨٨٤].

(٧) [ينظر: مواهب الجليل: ٢/ ٢٥٣، وروضة الطالبين: ١/ ٢٤٩، وزاد المستقنع: ٤٧].

قال النووي: قال أصحابنا: وإذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة القيامة:٤٠]، قال: بلىٰ وأنا علىٰ ذلك من الشاهدين، وإذا قرأ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة المرسلات:٥٠] قال: آمنا بالله، وكل هذا يستحب لكل قارئ في صلاته أو غيرها، وسواء صلاة الفرض والنفل والمأموم والإمام والمنفرد؛ لأنه دعاء فاستووا فيه كالتأمين [(١)].

وقال ابن قدامة: قيل لأحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة القيامة:٤٠]؛ هل يقول: سبحان ربي الأعلىٰ، قال: إن شاء قاله فيما بينه وبين نفسه، ولا يجهر به في المكتوبة وغيرها... وعن ابن عباس، أنه قرأ في الصلاة: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة القيامة:٤٠]. فقال: سبحانك، وبلىٰ [(٢)].

قال البهوتي: في صلاة وغيرها قال سبحانك فبلىٰ، في فرض ونفل، ومنع منه ابن عقيل فيهما [(٣)].

وواضح من كلام النووي أن الأصل عند الشافعية في هذا الأحاديث التي ذكرتها آنفًا، وأما الإمام أحمد فذكر الأثر عن ابن عباس.

ومن العلماء من أجاز ذلك في نهاية سورة القيامة؛ لأن حديثها ثابت بخلاف الاستفهام في بقية السور؛ فالشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ سئل: هل يجوز قول (بلىٰ) عند السور التي تنتهي ببعض الأسئلة مثل: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة التين:٨]؟ فقال: لا يشرع ذلك إلا عند تلاوة آخر آية من سورة القيامة وهي قوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) [المجموع: ٤ / ٦٧].

(٢) [المغني: ٢/ ٤٤].

(٣) [كشاف القناع: ١/ ٣٨٤].

[سورة القيامة:٤٠] ؛ فإنه يستحب أن يقال عند قراءتها: سبحانك فبلىٰ؛ لصحة الحديث بذلك عن النبي ﷺ [(١)].

ومن النوع الثاني وهو الاستفهام الذي لم يرد فيه شيء:

قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الأنعام:٥٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النمل:٦٠]، وقوله تعالىٰ : ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [سورة الزمر:٣٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الزمر:٣٧].

فمن وقف علىٰ ثبوت النص فيه فإنه يمنع الجواب عند هذا النوع ببلىٰ ونحوه لا داخل الصلاة ولا خارجها؛ لأنه أمر محدث لا دليل عليه، ولكنها تدخل في آيات التسبيح؛ لأن التسبيح تنزيه يتضمن التعظيم، والتسبيح عند الآيات المقتضية ذلك منصوص عليه.

ومن العلماء من يتوسع في ذلك فيرىٰ جواز الجواب في هذا النوع ببلىٰ ولو لم يرد نص بخصوصه؛ لأنه إن جاز في بعض الاستفهام جاز في بقيته مما هو مثله. وهو قول قوي جدا لولا أن هيبة مبنىٰ العبادات علىٰ التوقيف ترد عنه.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وفيه آيات كثيرة؛ كقوله في سورة النمل: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النمل:٦٠]؟ فهل يصحُّ أن يقول: لا؟ الجواب: نعم، يصحُّ أن يقول: لا إله مع الله [(٢)].

وهذا البحث كله في الاستفهام التقريري، أما الاستفهام الإنكاري، فلا يجيب فيه؛ لأنه حينئذ يقلب المعنىٰ. وكذلك الاستفهام المسوق للتهديد والوعيد.

قال الشيخ ابن عثيمين: ولو قرأ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الملك:٣٠]. فهنا لا يقول: يأتي به الله؛ لأن هذا إنما جاء في سياق التهديد والوعيد، فالله أمر

---

(١) [مجموع فتاواه: ٢٩/ ٢٨٢].

(٢) [الشرح الممتع: ٣/ ٢٩١].

الرسول ﷺ أن يقول لهؤلاء المكذبين: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الملك: ٣٠] (١).

(١) [الشرح الممتع : ٣/ ٢٩١].

المسألة التاسعة : دعوات الرسل عليهم السلام

الدعوات التي دعا بها الرسل عليهم السلام في القرآن كثيرة جدا، ومن فوائد حكايتها وإخبارنا بها: إظهار عبودية الرسل لله تعالىٰ بالدعاء الذي هو العبادة للتأسي بهم، والدعاء بهذه الأدعية النافعة العظيمة التي أنطق الله تعالىٰ بها أفضل خلقه عليهم السلام، وما كان الله تعالىٰ ليختار لهم إلا أكمل أنواع العبودية، وأفضل الدعاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام: ٩٠].

ويتعلق بهذه المسألة قبل خوض تفصيلاتها مسألتان أصوليتان:

أولاهما: تعلق دعاء الرسل بمسألة: شرع من قبلنا هل يكون شرعا لنا؟

ثانيهما: دخول النسخ في الدعاء.

أما المسألة الأولىٰ: فلا أرىٰ دخول الدعاء المطلق أصلا في هذه المسألة حتىٰ تبحث؛ وذلك لأن الأدعية المطلقة ليست توقيفية، بل هي منوطة بحاجة الإنسان، ويجوز أن يحدث منها وفيها ما يشاء، وأن يزيد علىٰ المأثور، وأن ينقص منه ما لم يتعد في دعائه.

وإذا جاز إحداث أدعية مطلقة توافق حاجة الداعي فلأن يدعو بدعاء الرسل من باب أولىٰ؛ لأن دعاءهم عليهم السلام خير مما يخترعه العبد لنفسه.

وأما المسألة الثانية: فالظاهر أنه يرد النسخ في الدعاء، كما كان مباحا في أول الإسلام الاستغفار للوالدين والقرابة المشركين، وقد قال النبي ﷺ في عمِّه أبي طالب الذي مات علىٰ الشرك: «**أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [سورة التوبة: ١١٣] (١).

قال الزركشي رحمه الله تعالىٰ: هل يرد النسخ في الدعاء؟

---

(١) [رواه البخاري: ١٣٦٠، ومسلم: ٢٤].

روىٰ الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال:«**اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن صفوان بن أمية**» قاله عليه السلام وهم كفار قريش، ثم أسلموا بعد ذلك.

قال صاحب «مسند الفردوس»: وهذا منسوخ بقوله: «اللهم أيما رجل سببته أو شتمته فاجعل ذلك قربة إليك» متفق عليه[1].

وعليه فكل دعاء دعا به نبي من الأنبياء فالأصل مشروعية الدعاء به، ما لم يكن منسوخا كدعوة الخليل في الاستغفار لأبيه المشرك، أو يكن ثمة مانع من الدعاء به لسبب آخر.

ويمكن تقسيم دعاء الرسل عليهم السلام إلىٰ أقسام:

القسم الأول: دعوات عامة تصلح للنبي ولغيره، وهي أكثر ما ورد في القرآن من دعوات الأنبياء عليهم السلام ، ومنها:

دعاء آدم وحواء عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأعراف:٢٣].

ودعاء نوح عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة هود:٤٧].

ودعاء الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة إبراهيم:٣٥].

ودعاء الكليم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [سورة الأعراف:١٥١].

وأحيانًا يكون لهذا النوع من الأدعية تأييد في شرعنا إما بدعاء النبي عليه الصلاة والسلام به، وإما ببيان فضله والحث عليه.

---

(١) [البحر المحيط: ٥/ ٢٥٠-٢٥١].

فمن الأول: عَنْ رَجُلٍ، مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قَالَ: (صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «اللهُمَّ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»)[(١)]، وهي مثل دعوة الخليل عليه السلام حين قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧﴾ [سورة الشعراء:٨٧].

ومن الثاني: قول النبي ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [سورة الأنبياء:٨٧]، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ»[(٢)].

القسم الثاني: أن تكون الدعوة خاصة بالنبي الذي دعا بها، فدعاء غيره بها يعد من التعدي في الدعاء، ومن أمثلته دعاء الخليل عليه السلام أن يريه الله تعالىٰ كيف يحيي الموتىٰ فأراه؛ فإن هذا من المعجزات الخاصة التي ليست لكل أحد حتىٰ يسألها العبد، ويدّعي أنه يتأسىٰ بالخليل، وكل ما كان من المعجزات فهو مثله كمائدة عيسىٰ عليه السلام.

ومنه أيضاً دعوة موسىٰ عليه السلام أن يرىٰ الله تعالىٰ ولم يُجَبْ إلىٰ ذلك؛ لأن الله تعالىٰ لا يُرىٰ في الدنيا، فكيف يدعو بها أحد بعد موسىٰ عليه السلام وهو لم يجب لها؟!

القسم الثالث: أن تتضمن دعوة النبي كلا القسمين السابقين، فيكون فيها ما هو عام، ويكون فيها ما هو خاص بالنبي، وحينئذ فللداعي أن يدعو بما يكون عاما للنبي وغيره، ويترك ما هو خاص به.

ومن أمثلته: دعوة سليمان عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [سورة ص:٣٥]، فالدعاء بالمغفرة عام لكل أحد، والدعاء بهبة ملك لا ينبغي لأحد خاصة به عليه السلام، وقد استجاب الله تعالىٰ له فسخر له الريح والجن وألان له الحديد...الخ.

---

(١) [رواه أحمد: ١٨٠٥٦].

(٢) [رواه الترمذي: ٣٥٠٥، وصححه الحاكم والألباني].

ودليل اختصاصه بها حديث أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَىٰ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّىٰ تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي» (١).

القسم الرابع: أن يكون دعاء النبي صالحا لمن أصيب بمثل حاجته، فلا يصلح أن يكون عاما، لكن يدعو به من كانت حاجته كحاجة النبي.

ومنه دعوة يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة يوسف:٣٣]، وكذلك قوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة يوسف:١٠١].

ومنه أيضاً دعوة زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الأنبياء:٨٩]، وهذا لمن لا ذرية له كما دعا به زكريا، وجائز أن يدعو به من له ذرية باعتبار استدامة الذرية، وعدم فقدهم بموت أو عقوق؛ لأن دعوته هذه أعم من دعوته الأخرىٰ ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة آل عمران:٣٨].

ومنه أيضاً دعوة نوح عليه السلام لما ركب السفينة، وقد أمره الله تعالىٰ بهذه الدعوة ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة المؤمنون:٢٨-٢٩].

---

(١) [رواه البخاري: ٤٦١، ومسلم: ٥٤١].

وتسمىٰ الآية الثانية آية النزول، ذكر الحنابلة أن الجنب يقرؤها حال النزول، وكأنهم يرون مشروعية ذلك، ولا أدري هل هو كل نزول أم ماذا؛ لأنهم أوردوها فيما يقرأ الجنب فذكروا آية الركوب وآية النزول(١).

وجاء فيها حديث عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: «مَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ كَانَ ضَامِنًا عَلَىٰ اللهِ مَا جَلَسَ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ أَوْ يَرْفُثْ»(٢)، وفي رواية« مَنْ تَوَضَّأَ فِي أَهْلِهِ، ثُمَّ غَدَا إِلَىٰ مَسْجِدِهِ أَوْ رَاحَ لا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ أَوْ يُعَلِّمَ، كُتِبَتْ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ حَسَنَةٌ...حَتَّىٰ إِذَا تَوَسَّطَ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْزِلْنِي مَنْزِلًا مُبَارَكًا، وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ عِتْقِ رَقَبَةٍ» (٣).

والظاهر أنه لا يشرع قول ذلك حال النزول؛ لأنه دعاء مؤقت بحال معينة فاحتاج إلىٰ دليل، وليس دعاء مطلقا كسائر أدعية الرسل عليهم السلام.

القسم الخامس: أن يكون فيه دعاء عام، وفيه ما لا يصلح إلا لمن كانت له نفس حاجة النبي، فيدعو بما كان عاما ويتجاوز ما لا يصلح له.

ومنه دعوة الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝٨٣ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝٨٤ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۝٨٥ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [سورة الشعراء:٨٣-٨٩]، فاستغفار الخليل عليه السلام لأبيه منسوخ بالنهي عن الاستغفار للمشركين، ويبقىٰ الاستغفار للأب المسلم، لكن المشكلة هنا وصف الأب بالضال، فصار في بعض دعاء الخليل ما لا يصلح لكل داع.

---

(١) [ينظر: المغني: ١/ ١٠٦، وكشاف القناع:١/ ١٤٨].

(٢) [رواه الدولابي في الكنىٰ: ٧٨٥].

(٣) [رواه تمام في فوائده: ١٦٨٠، وهو حديث منكر في سنده جَمِيع بن ثوب، وهو منكر الحديث كما ذكر البخاري وأبو حاتم والنسائي].

فالآيات الثلاث الأولىٰ يدعو بها كل مؤمن، وكذلك الدعوة الأخيرة في الآية الخامسة وما بعدها، لكن ما جاء في الآية الرابعة فلا يخلو أمر الداعي بهذه الدعوات من حالات:

الأولىٰ: أن يكون والد الداعي مؤمنًا صالحًا، وحينئذ لا تصلح هذه الدعوة له، وله أن يتجاوزها إلىٰ ما بعدها، ولا حرج عليه في قفز آية؛ لأنه داع وليس قارئا للقرآن.

الثانية: أن يكون والد الداعي كافرا مات علىٰ الكفر، ولا تصلح له هذه الدعوة؛ للنهي عن الاستغفار للمشركين.

الثالثة: أن يكون والد الداعي مسلمًا مسرفًا علىٰ نفسه بالعصيان، أو مبتدعًا مغال في بدعته، سواء كان حيا أم ميتا، فالظاهر أنه يدعو له بها؛ لأن الإسراف في المعاصي وركوب البدع من الضلال.

الرابعة: أن يكون والد الداعي كافرا حيا، فالظاهر جواز الدعاء له بها؛ لإمكانية هدايته، ومن مغفرة الله تعالىٰ له، ورحمته به أن يهديه للإيمان. والهدي النبوي الدعاء له بالهداية كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النبي ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ**»(١). وقوله ﷺ: «**اللهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ**»(٢).

والآية المانعة من الاستغفار للمشركين فيها قيد مهم وهو ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾ [سورة التوبة:١١٣]، وهذا لا يكون إلا بالموت علىٰ الشرك كما صحَّ ذلك عن ابن عباس ﷺ. وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: (**مَاتَ رَجُلٌ نَصْرَانِيٌّ وَلَهُ ابْنٌ مُسْلِم، فَلَمْ يَتْبَعْهُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:«كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتْبَعَهُ، وَيَدْفِنَهُ، وَيَسْتَغْفِرَ لَهُ فِي حَيَاتِهِ»**) (٣).

---

(١) [رواه البخاري: ٦٣٩٧، ومسلم: ٢٥٢٤].

(٢) [رواه مسلم: ٢٤٩١].

(٣) [رواه ابن أبي شيبة: ١١٨٤٧].

ومن هذا النوع أيضـًا دعوة موسىٰ عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [سورة طه:٢٥-٣٢].

فالدعاء بشرح الصدر وتيسير الأمر صالح لكل أحد، لكن الدعاء بحل عقدة اللسان يكون بمن في لسانه عقدة دون غيره، وقد قيل: إن في لسان موسىٰ عقدة أو لثغة بسبب أخذه للجمرة لما كان طفلا فكوت لسانه وهذه القصة من الإسرائيليات، وقيل: بل إن موسىٰ عليه السلام فيه غضب وحدة دل عليها إلقاؤه الألواح من الغضب وفيها كلام الله تعالىٰ، وأخذه برأس أخيه يجره إليه، وأنه إذا غضب احتبس لسانه عن الكلام علىٰ عادة الغضبان.

فمن كان في مثل حال الكليم عليه السلام دعا بـ ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ [سورة طه:٢٧]، ويحتمل جواز ذلك مطلقا علىٰ قصد استدامة الفصاحة وزيادتها.

وأما الدعاء بوزير من أهله يشرك في أمره فهذا خاص بموسىٰ عليه السلام؛ لأنه بهذه الدعوة شفع لأخيه هارون عليه السلام أن يكون نبيا معه، وهي أعظم شفاعة في التاريخ البشري وأنفعها، فلا يدعو بها غيره.

فكان في دعوة موسىٰ عليه السلام أنواع ثلاثة: عام لكل أحد، وخاص بمن هو في مثل حال موسىٰ، وخاص بموسىٰ دون غيره.

القسم السادس: أن تكون دعوة النبي قد مضت واستجيبت، وهذا علىٰ نوعين:

الأول: دعوة تصلح استدامتها، فيدعىٰ بها، ومن هذا النوع: دعوة الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [سورة البقرة:١٢٦]، فهذه دعوة قد مضت واستجيب لها، لكن المؤمن لا يمنع من الدعاء بها لصلاحيتها لكل زمن؛ وللتأسي بالخليل عليه السلام، وقد أمرنا بذلك، ولاستدامة الأمن والرزق في البيت الحرام.

الثاني: دعوة لا تصلح استدامتها، فلا يدعىٰ بها، ومن هذا النوع دعوة الخليل أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [سورة البقرة:١٢٩].

فقد استجيب للخليل، وبعث محمد ﷺ، وما توفي إلا وقد علم أمته كتابهم ودينهم وزكاهم.

القسم السابع: أن يكون في دعاء النبي قيد خاص به أو يحتمل خصوصيته به، ومن ذلك دعوة الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ [سورة إبراهيم:٤٠]، فالخليل دعا ربه سبحانه أن يجعله مقيم الصلاة، ثم عطف ذريته علىٰ نفسه في الدعوة، لكنه استخدم (من) فقال (ومن ذريتي) ولم يقل: اجعلني مقيم الصلاة وذريتي، فما نوع (من) هنا، وهل لها أثر في تلك الدعوة؟!

اختلف المفسرون في نوع (من) علىٰ قولين:

القول الأول: أنها تبعيضية، أي اجعل من ذريتي من يقيم الصلاة، وليس كلهم؛ وذلك لأن الله تعالىٰ قد أعلم الخليل أن من أمته من يكونون كفارا ولن يصلوا، فكان الدعاء لهم بالصلاة وهذه عاقبتهم تعديا في الدعاء.

قال الزجاج: أي: (واجعل مِنْ ذُرِّيَّتِي من يقيم الصلاة) [١]، وقال بمثل قول الزجاج: ابن أبي زمنين[٢]، والواحدي في الوجيز[٣]، والسمعاني[٤]، والبغوي[٥]، والقرطبي[٦].

---

(١) [معاني القرآن: ٣/ ١٦٥].

(٢) [٢/ ٣٧٣].

(٣) ص:٥٨٥.

(٤) [٣/ ١٢١].

(٥) [٤/ ٣٥٨].

(٦) [٩/ ٣٧٥].

قال الزمخشري: وبعض ذرّيتي، عطفا علىٰ المنصوب في اجعلني، وإنما بعَّض لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذرّيته كفار، وذلك قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [سورة البقرة:١٢٤] (١).

ونص علىٰ أنها للتبعيض: الرازي(٢)، والبيضاوي(٣)، والنسفي(٤)، والخازن(٥)، وأبي حيان(٦)، حيان(٦)، وأبي السعود(٧).

القول الثاني: أن (من) في (**ومن ذريتي**) ليست تبعيضية، وهو ما رجحه ابن عاشور، فقال: (**ومن ذريتي**) صفة لموصوف محذوف معطوف علىٰ ياء المتكلم. والتقدير: واجعل مقيمين للصلاة من ذريتي.

و (**من**) ابتدائية وليست للتبعيض؛ لأن إبراهيم عليه السلام لا يسأل الله إلا أكمل ما يحبه لنفسه ولذريته.

ويجوز أن تكون من للتبعيض بناء علىٰ أن الله أعلمه بأن يكون من ذريته فريق يقيمون الصلاة وفريق لا يقيمونها، أي: لا يؤمنون. وهذا وجه ضعيف؛ لأنه يقتضي أن يكون الدعاء تحصيلا لحاصل، وهو بعيد، وكيف وقد قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [سورة إبراهيم:٣٥]، ولم يقل: ومن بني(٨).

---

(١) [٢/ ٥٦١].

(٢) [١٩/ ١٠٧].

(٣) [٣/ ٢٠٢].

(٤) [٢/ ١٧٧].

(٥) [٣/ ٤٢].

(٦) [٦/ ٤٥٠].

(٧) [٥/ ٥٤].

(٨) [التحرير والتنوير ١٣/ ٢٤٤].

وذكر الشيخ ابن عثيمين احتمال أنها بيانية واحتمال أنها تبعيضية[١].

وثمرة الخلاف في المسألة: أن (من) إن كانت للتبعيض كما هو قول جمهور المفسرين فإن الداعي يحذفها حال الدعاء فيقول: رب اجعلني مقيم الصلاة وذريتي؛ وذلك لأنه لا علم له بأن من ذريته من سيكونون كفارا أو لا يقيمون الصلاة، كما علم ذلك إبراهيم عليه السلام بتعليم الله تعالىٰ له فبعَّض الدعوة، ولم يجعلها مطلقة.

وأما إن كانت (من) ابتدائية أو بيانية فإن الداعي يبقيها كما هي فيدعو: رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي. وإن كان يدعو بجماعة قال: ربنا اجعلنا مقيمي الصلاة ومن ذرياتنا، والله أعلم.

والتزام الدعاء بالوارد في الآية عند إقامة الصلاة كما يفعله بعض العوام ليس مشروعـًا لأنه لا أصل له. والمنهي عنه هو التزام هذه الدعوة في هذا الموطن بلا دليل.

---

(١) [تفسير الفاتحة والبقرة: ٢/ ٤٢].

المسألة العاشرة: مسائل الرسل عليهم السلام

من نظر في دعاء الرسل عليهم السلام ربهم ﷻ يجد أن مسائلهم متنوعة، ومنها ما هو طلب خاص بالداعي، ومنها ما هو لقومه أو أمته أو لعموم الناس، ومنها ما يتعلق بأمور الدنيا، ومنها ما يتعلق بأمور الدين أو الآخرة، وهي أكثر دعواتهم عليهم السلام.

وهذا تفصيل دعواتهم عليهم السلام:

١- الدعاء بأمن المسجد الحرام ورزقه، وهي دعوات الخليل عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ ﴾ [سورة البقرة:١٢٦]، وقوله: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:٣٥]، وقوله: ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:٣٧]، فإن دعوته عليه السلام بأمن الحرم ورزق أهله سبب لورود الناس عليه، وتعبدهم فيه.

ويستفاد من هذه الدعوة المباركة أن الرزق والأمن من ضرورات العيش، ولا عيش هنيئًا بدونهما، وأن للإنسان أن يسأل الله تعالىٰ دوام الأمن والرزق وزيادتهما؛ لأنه بهما يتمكن من إقامة دين الله تعالىٰ والدعوة إليه.

٢- طلب المعجزات:

كطلب إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ ﴾ [سورة البقرة:٢٦٠].

وموسىٰ عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [سورة الأعراف:١٤٣].

وعيسىٰ عليه السلام: ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سورة المائدة:١١٤].

وهي دعوات لتثبيت القلب وطمأنينته، وتقوية الإيمان وزيادته، كما في دعوتي الخليل والكليم عليهما السلام، أو لهداية الناس ودعوتهم كما في دعوة عيسىٰ عليه السلام، وهي خاصة بهم.

٣- طلب الذرية:

كما في دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة الصافات:١٠٠].

ودعوة زكريا عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة آل عمران:٣٨].

ويلاحظ في هاتين الدعوتين تقييد طلب الولد بأن يكون صالحًا، وهو ما عبَّر عنه الخليل بقوله: ﴿ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة الصافات:١٠٠]، وفي طلب زكريا أن تكون الذرية طيبة، فينبغي أن يقيد سؤال الولد بكونه صالحا؛ لأن فساده يشقي أبويه، وقد يضرهما في دينهما فيجرهما إلىٰ فساده، والخضر رحمه الله تعالىٰ قتل الغلام وعلل ذلك بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [سورة الكهف:٨٠].

٤- طلب آية علىٰ تحقق الدعوة كدعوة زكريا عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [سورة مريم:١٠]، أراد نصب علامة علىٰ وقوع الحمل بالغلام؛ لأن البشارة لم تعين زمنا، وقد يتأخر الموعود به لحكمة، فأراد زكريا أن يعلم وقت الموعود به. وفي هذا الاستعجال تعريض بطلب المبادرة به...ومعنىٰ ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ [سورة مريم:١٠]؛ أي: أن لا تقدر علىٰ الكلام؛ لأن ذلك هو المناسب لكونه آية من قبل الله تعالىٰ، وليس المراد نهيه عن كلام الناس، إذ لا مناسبة في ذلك للكون آية[1].

٥- طلب المغفرة والرحمة:

كدعوة آدم وحواء عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأعراف:٢٣].

وقول نوح عليه السلام: ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة هود:٤٧].

ودعوة موسىٰ عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [سورة الأعراف:١٥١].

---

(١) [التحرير والتنوير: ١٦/ ٧٣].

ودعوة موسىٰ أيضـًا: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ [سورة القصص:١٦].

٦- طلب النجاة من العذاب:

كدعوة موسىٰ عليه السلام: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٥٥].

ومنه أيضـًا دعوة لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء:١٦٩]؛ أي: من عذاب ما يعملونه، فلا بد من تقدير مضاف كما دل عليه قوله: فنجيناه. ولا يحسن جعل المعنىٰ: نجني من أن أعمل عملهم؛ لأنه يفوت معه التعريض بعذاب سيحل بهم[(١)].

٧- الدعاء للذرية كدعوة نوح عليه السلام لابنه الكافر الغريق: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة هود:٤٥-٤٦]، فلم يُقرَّ نوح علىٰ هذه الدعوة؛ لكفر ولده فتاب نوح عليه السلام منها.

قال القرطبي رحمه الله تعالىٰ: في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين. وروي أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطاه، قال: فعلم مالك أنه قد فهمه الناس، فقال مالك: الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات[(٢)].

لكن يستفاد منها الدعاء للذرية المؤمنة بالمغفرة والنجاة. والدعاء للذرية الكافرة بالهداية، ويستفاد منها الإعراض عن الأدعية التي فيها اعتداء وسوء أدب مع الله تعالىٰ.

---

(١) [التحرير والتنوير: ١٩/ ١٨١].

(٢) [تفسير القرطبي ٩/ ٤٧].

ومن هذا أيضـًا دعاء الخليل عليه السلام لذريته باجتناب الأصنام، وإقامة الصلاة، ونيل الإمامة في الدين.

٨- التعوذ من الجهل في المسألة كدعوة نوح عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [سورة هود:٤٧].

٩- سؤال الابتلاء في الدنيا علىٰ الفتنة في الدين، كدعوة يوسف عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾ [سورة يوسف:٣٣]، والأصل أن المؤمن يسأل الله تعالىٰ العافية، ولا يتعرض للبلاء أو الفتنة، ولكن إذا كان الأمر بين أن يفتن في دينه وينتقص منه فلا مناص حينئذ من تحمل البلاء في النفس أو المال لحفظ الدين، كما فعل يوسف عليه السلام.

قال القرطبي رحمه الله تعالىٰ: أي: دخول السجن أسهل علي وأهون من الوقوع في المعصية، لا أن دخول السجن مما يحب علىٰ التحقيق[١].

١٠- سؤال العصمة سواء كانت من الشرك كدعوة الخليل عليه السلام: ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ [سورة إبراهيم:٣٥-٣٦].

أو من المعصية كدعوة يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [سورة يوسف:٣٣]، أي: إن لم تلطف بي في اجتناب المعصية وقعت فيها.

قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن علىٰ ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال، والرياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السجن علىٰ ذلك، خوفا من الله ورجاء ثوابه[٢].

---

(١) [تفسير القرطبي ٩/ ١٨٤].

(٢) [٤/ ٣٨٦-٣٨٧].

١١- سؤال الموافاة علىٰ الإسلام والدخول في الصالحين كدعوة يوسف عليه السلام: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [سورة يوسف:١٠١].

١٢- سؤال إقام الصلاة كدعوة الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ﴾ [سورة إبراهيم:٤٠]، وهذا يدل علىٰ أهمية الصلاة عند الله تعالىٰ وفي شرائع رسله عليهم السلام.

١٣- سؤال قبول العمل الصالح، ومنه دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٢٧].

١٤- سؤال قبول الدعاء كدعوة الخليل عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:٤٠]، وهذا الدعاء ينبغي أن يتخلل الدعاء كما فعل الخليل عليه السلام، وأن لا يغفل عنه الداعي. وقبول الدعاء يشمل أمرين:

أولهما: -وهو الأهم ويغفل عنه كثير من الناس- كون الدعاء عبادة يؤجر عليها العبد، فهو محتاج إلىٰ قبولها كسائر عمله الصالح. وثانيهما: استجابة الدعاء، وتحقق المطلوب.

والأول أكثر حظا للمؤمن وأدوم من الثاني في الغالب.

١٥- سؤال تحصيل آلات القيام بالبلاغ والدعوة، كدعوة الكليم عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة طه:٢٥-٣٢].

فهذه الدعوات من موسىٰ عليه السلام متعلقة بقيامه بالدعوة، فسأل شرح صدره ليتحمل عنت فرعون وصدوده واستكباره، وسأل تيسير أمره في هذه المهمة العظيمة، وأن يحل الله تعالىٰ عقدة لسانه ليبين لفرعون وقومه حقيقة دعوته، وشفع لأخيه هارون أن يكون معينا له علىٰ أداء هذه المهمة العظيمة، وأن يشدَّ الله تعالىٰ به أزره.

ولا مانع من الدعاء بما يصلح منها لكل أحد كطلب شرح الصدر وتيسير الأمر.

١٦- طلب النجاة من الظالمين والنصر عليهم، ومنه دعوة نوح عليه السلام: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الأنبياء:٧٦-٧٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الصافات:٧٥-٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة المؤمنون:٢٦]، وقال لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة العنكبوت:٣٠]، وقال شعيب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الأعراف:٨٩]، وقال موسىٰ عليه السلام: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة القصص:٢١]، وفي مقام آخر: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة المائدة:٢٥]، أي: فافصل بيننا وبينهم بأن تحكم لنا بما وعدتنا وتحكم عليهم بما هم أهله وهو في معنىٰ الدعاء عليهم، أو فباعد بيننا وبينهم وخلصنا من صحبتهم كقوله: ونجنىٰ من القوم الظالمين[(١)].

١٧- طلب الخير، ومنه الرزق والمأوىٰ، كدعوة موسىٰ في هجرته لما آوىٰ إلىٰ الظل وليس له أحد إلا الله تعالىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة القصص:٢٤]؛ أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعيا ربه متملقا[(٢)].

١٨- طلب الشفاء من المرض، ومنه دعوة أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة الأنبياء:٨٣-٨٤]،

---

(١) [تفسير النسفي:١/ ٤٤٠].

(٢) [تفسير السعدي: ٦١٤].

وفيه دليل علىٰ مشروعية الدعاء بالشفاء من الأمراض، وطلب العلاج؛ لأن الدعاء علاج، بل هو أنفع العلاج، وأن ذلك لا يقدح في التوكل.

١٩- طلب النجاة من الكرب، كدعاء يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [سورة الأنبياء:٨٧]، والكروب التي تنزل بالناس متنوعة، وقد يكون كربا علىٰ أفراد، وقد يصيب جماعة، فشرع إظهار عبودية الدعاء لكشفه، وقد جاء في الحديث أن هذا دعاء الكرب.

٢٠- سؤال العلم والفهم، وبقاء الأثر والذكر، ودخول الجنة، والدعاء للأب بالمغفرة، وسؤال النجاة من خزي القيامة كدعوة الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧﴾ [سورة الشعراء:٨٣-٨٧].

فسأل الخليل عليه السلام ربه العلم بالشريعة ليعلم الناس ويحكم بينهم بها، وسأل لسان الثناء عليه بعد موته، وسأل الجنة، والمغفرة لوالده قبل أن يتبين أنه لا يهتدي، والنجاة من خزي يوم القيامة.

٢١- سؤال القدرة علىٰ الشكر والعمل الصالح، والانتظام في سلك الصالحين، ومنه دعوة سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [سورة النمل:١٩]؛ أي: ألهمني ووفقني لشكر نعمتك، وملازمة ذلك علىٰ الدوام، وهذا يدل علىٰ أن شكر الله تعالىٰ علىٰ نعمه، وملازمة العمل الصالح لا يقدر عليها العبد إلا بعون الله تعالىٰ وتوفيقه، وهذا موافق لقول الله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [سورة الفاتحة:٥-٦]، كما يدل علىٰ أن الصالحين ينبغي أن يكثروا من هذا الدعاء، ولا يغتر عبد بصلاحه فيترك الدعاء

بالإعانة علىٰ ما هو فيه والزيادة منه، كيف؛ وقد دعا بذلك النبي الصالح سليمان عليه السلام؟!

٢٢- سؤال ملك ليس لأحد، وهي دعوة خاصة بسليمان عليه السلام فقال في دعوته: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ [سورة ص:٣٥]؛ فاستجيب له.

٢٣- الدعوة بهلاك الكفار كلهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ [سورة نوح:٢٦]، وكذلك قوله عليه السلام: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ [سورة نوح:٢٨]؛ أي: هلاكا.

وهذه الدعوة استدل بها من أجاز الدعاء علىٰ الكفار بالهلاك العام باعتبار الأمر بالاقتداء بالرسل، وأن الله تعالىٰ أقر نوحا علىٰ دعوته واستجاب له فأغرق الأرض ومن عليها، وأنه لا يقضىٰ علىٰ الأمر الشرعي -الذي هو الدعاء علىٰ الكفار بالهلاك العام- بالأمر الكوني -الذي هو بقاء الكفار إلىٰ آخر الزمان-.

ومن العلماء من جعلها خاصة بنوح عليه السلام؛ لأن الله تعالىٰ قد أعلمه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وجعل الدعاء بها تعديا في الدعاء؛ لأن الله تعالىٰ قد قضىٰ ببقاء الكفار إلىٰ آخر الزمان، وأن الدعاء بشيء قد علم عدم وقوعه يعد تعديا في الدعاء.

ومن العلماء من يرىٰ أن نوحًا اجتهد في دعوته تلك، ولم تكن عن أمر الله تعالىٰ، ولو استجاب له؛ ولذلك يعتذر عن الشفاعة يوم القيامة بقوله عليه السلام: «قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَىٰ قَوْمِي»[١] ، وفي رواية لأحمد «إِنِّي دَعَوْتُ بِدَعْوَةٍ أَغْرَقَتْ أَهْلَ الْأَرْضِ»[٢]، وفي رواية للترمذي «إِنِّي دَعَوْتُ عَلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ دَعْوَةً فَأُهْلِكُوا» [٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: ودعاء نوح علىٰ أهل الأرض بالهلاك كان بعد أن أعلمه الله أنه لا يؤمن من قومك إلا من قد آمن، ومع هذا فقد ثبت في حديث الشفاعة في

---

(١) [رواه البخاري: ٢٧١٢].

(٢) [٢٥٤٦].

(٣) [٣١٤٨].

الصحيح أنه يقول: (**إني دعوت علىٰ أهل الأرض دعوة لم أومر بها**) فإنه وإن لم ينه عنها فلم يؤمر بها، فكان الأولىٰ أن لا يدعو إلا بدعاء مأمور به واجب أو مستحب فإن الدعاء من العبادات فلا يعبد الله إلا بمأمور به واجب أو مستحب وهذا لو كان مأمورا به لكان شرعا لنوح ثم ننظر في شرعنا هل نسخه أم لا؟[(١)].

وهذه المسألة من عويصات المسائل، والكلام فيها يطول، وحجج كل فريق فيها قوية، والأحوط للداعي أن لا يدعو علىٰ الكفار بالهلاك العام.

٢٤- الدعاء علىٰ الكفار بزيادة الضلال، والشد علىٰ قلوبهم، كدعوة نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة نوح:٢٤]، ودعوة موسىٰ عليه السلام: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة يونس:٨٨]، وقد بينا في مقالة سابقة أنه لا يدعىٰ بهاتين الدعوتين؛ لأن من لوازمهما الدعاء ببقاء الكفر أو المعصية، والمؤمن مأمور بإزالتهما بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالىٰ، وأن دعاء نوح وموسىٰ عليهما السلام كان بعد علمهما أن المدعي عليهم لن يؤمنوا.

٢٥- الدعاء للنفس والوالدين وجماعة المؤمنين، ومنه دعوة نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [سورة نوح:٢٨]، ودعوة الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [سورة إبراهيم:٤١]، والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات فيه حديث يدل علىٰ فضله العظيم ذكرناه سابقا.

لكن هنا مسألة تشبه مسألة الدعاء علىٰ الكفار بالهلاك العام، وهي أن يقول الداعي: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات جميع ذنوبهم. وهذا لن يقع قدرا؛ لأن من المؤمنين من يعذبون ببعض ذنوبهم كما دلت علىٰ ذلك الأحاديث؛ ولذا منع من هذه الصيغة قوم بهذا الاعتبار،

---

(١) [مجموع الفتاوىٰ ٨/ ٣٣٦].

وهي تختلف عن: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات؛ إذ قد يغفر لهم بعض ذنوبهم ويؤخذون ببعضها.

وضرب القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أمثلة علىٰ المحرم من الأدعية فقال: الأول: أن يقول اللهم اغفر للمسلمين جميع ذنوبهم، وقد دلَّت الأحاديث الصحيحة أنه لا بد من دخول طائفة من المسلمين النار وخروجهم منها بشفاعة وبغير شفاعة، ودخولهم النار إنما هو بذنوبهم فلو غفر للمسلمين كلهم ذنوبهم كلها لم يدخل أحد النار فيكون هذا الدعاء مستلزما لتكذيب تلك الأحاديث الصحيحة فيكون معصية(١).

فتعقبَّه ابن الشاط قائلاً: لقد كلف هذا الإنسان نفسه شططا، وادعىٰ دواعي لا دليل عليها، ولا حاجة إليها وهمـًا منه وغلطـًا، وما المانع من أن يكلف الله تعالىٰ خلقه أن يطلبوا منه المغفرة لذنوب كل واحد من المؤمنين مع أنه قد قضىٰ بأن منهم من لا يغفر له، ومن أين تلزم المنافاة بين طلب المغفرة ووجوب نقيضها؟ هذا أمر لا أعرف له وجها إلا مجرد التحكم بمحض التوهم(٢).

٢٦- سؤال الديمومة علىٰ الإسلام للنفس والذرية، وسؤال التوبة ومعرفة المناسك كدعوة إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [سورة البقرة:١٢٨].

٢٧- سؤال بعثة نبي في مكة يهدي الله تعالىٰ به أهلها ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [سورة البقرة:١٢٩].

---

(١) [الفروق: ٤/ ٢٨١-٢٨٢].

(٢) [إدرار الشروق بحاشية الفروق: ٤/ ٢٨٣].

وهذه الدعوة قد مضت فلا يدعىٰ بها، وقد استجاب الله تعالىٰ للخليل ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام الذي قال: «إِنِّي عَبْدُ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ عليه السلام لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَىٰ بي...»[(١)].

٢٨- إعلان التوكل والإنابة، وسؤال المغفرة والعصمة من الفتنة ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾ [سورة الممتحنة:٤-٥]، أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتنون أيضاً بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم علىٰ الحق وأنا علىٰ الباطل، فازدادوا كفرا وطغيانا[(٢)].

فسؤال العصمة من الفتنة في الدين من أهم المسائل التي ينبغي للمؤمن أن يعتني بها ولا سيما حين تكثر الفتن، فقد يفتن في دينه فيفتتن ولا يصبر، والسلامة في العافية. اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

وبهذا العرض التفصيلي لدعوات الأنبياء في القرآن تبين أن أكثر دعواتهم متعلق بالآخرة وما يوصل إليها، وما يتعلق بالدنيا منها فهو للاستعانة به علىٰ عمل الآخرة، وتبين أيضاً حرصهم الشديد علىٰ هداية الخلق للحق، وذلك بسؤال الله تعالىٰ الهداية لهم، فجزاهم عن عباده المؤمنين خير الجزاء، وجمعنا بهم في دار كرامته.

---

(١) [رواه أحمد:١٧١٥٠].

(٢) [تفسير السعدي: ٨٥٦].

المسألة الحادية عشرة : تفصيل الدعاء أو تعليله

في بعض آي الدعاء في القرآن الكريم وصفٌ للمدعو به، أو وصف لحال الداعي، أو تعليل لسبب الدعوة، أو ذكر لنعم الله تعالىٰ علىٰ الداعي في مقدمة دعوته، أو ذكر لنعمه سبحانه علىٰ المدعو عليه. فهل يأتي الداعي بأدعية القرآن بالدعاء وسببه أو تفصيله أو تعليله أم يقتصر علىٰ الدعاء فقط؟ وهل يكون ذلك دليلا علىٰ مثله من الأدعية؟!

وقد جاء ذلك في عدد من الآيات القرآنية في مواضع عدة من دعاء الرسل عليهم السلام ، ومما وقفت عليه منها:

الموضع الأول: قول الله تعالىٰ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [سورة المائدة:١١٤].

فعلَّل المسيح عليه السلام طلب المائدة بأن تكون عيداً لهم، لأولهم وآخرهم، أي: يتخذون يوم نزولها عيدا، وأيضـًا تكون آية.

﴿وَءَايَةً مِّنكَ ۖ﴾ [سورة المائدة:١١٤]؛ أي: دليلا تنصبه علىٰ قدرتك علىٰ الأشياء، وعلىٰ إجابتك دعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك(١).

الموضع الثاني: قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة يونس:٨٨].

فموسىٰ عليه السلام صدَّر دعوته بنعم الله تعالىٰ علىٰ فرعون وملئه بالزينة والأموال التي كانت سببا في ضلالهم لما لم يشكروا الله تعالىٰ، وإنما ذكر موسىٰ عليه السلام ذلك تمهيدا للدعاء عليهم

---

(١) [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٢٥].

بالطمس علىٰ أموالهم، والشد علىٰ قلوبهم، وعلل دعوته بأنهم لن يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم.

الموضع الثالث: قوله تعالىٰ إخبارًا عن الخليل عليه السلام أنه دعا فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [سورة إبراهيم:٣٧]، فعلَّل الخليل عليه السلام إسكان ذريته مكة بإقام الصلاة، وسأل الله تعالىٰ إقبال الناس إليهم، وتتابع الرزق عليهم.

قال القرطبي: واللام في «ليقيموا الصلاة» لام كي، هذا هو الظاهر فيها، وتكون متعلقة بـ«أسكنت»(١).

وقال النسفي رحمه الله تعالىٰ: أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك(٢).

الموضع الرابع: قول موسىٰ عليه السلام لما أمره الله تعالىٰ بدعوة فرعون كما حكىٰ الله تعالىٰ عنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [سورة طه:٢٥-٣٢].

وفي موضع آخر قال موسىٰ عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾ [سورة الشعراء:١٢-١٤].

وفي موضع ثالث: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ [سورة القصص:٣٣-٣٤].

---

(١) [تفسير القرطبي ٩/ ٣٧١].

(٢) [٢/ ١٧٦].

ففي كل المواضع الثلاثة علل موسىٰ عليه السلام دعوته ببعثة أخيه هارون معه لدعوة فرعون بأنه خاف أن يكذبه فرعون وأن يقتله، وطلب أن يشد الله تعالىٰ أزره بأخيه هارون لأنه أفصح منه...ألخ. والله تعالىٰ يعلم حال موسىٰ وهارون عليهما السلام، ويعلم صلف فرعون وعناده وجبروته، ومع ذلك فصَّل موسىٰ في دعوته؛ لأن في هذا التفصيل بيان حالة الافتقار والاضطرار التي هو عليها، وهذا أدعىٰ للإجابة.

الموضع الخامس: قوله تعالىٰ حكاية عن زكريا عليه السلام أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [سورة مريم:٤-٦].

ففصَّل زكريا عليه السلام حاله التي تدل علىٰ الفاقة لله تعالىٰ والافتقار إليه سبحانه من كبر السن وشيب الرأس، ووهن العظم، وعقم زوجته.

قال النسفي رحمه الله تعالىٰ: هذا تفسير الدعاء ...وخص العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه فإذا وهن تداعىٰ وتساقطت قوته؛ ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن[1].

ثم ذكر عليه السلام بعد هذه المقدمة التي تدل علىٰ ضعف حاله مسألته وهي طلب الولد، وبين علة ذلك، وهي أن يبقىٰ ذكره وأن يرث دينه؛ خوفا من تبديل بني إسرائيل له.

قال البغوي رحمه الله تعالىٰ: والمعنىٰ: أنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه علىٰ ما كان يشاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه ولدا صالحا يأمنه علىٰ أمته، ويرث نبوته وعلمه؛ لئلا يضيع الدين[2].

---

(١) [٢/ ٣٢٥].

(٢) [٣/ ٢٢٦].

وقد استفيد من دعاء زكريا عليه السلام أنه ينبغي للداعي أن يذكر عوائد الله تعالىٰ معه، ونعمه عليه؛ لأن زكريا فعل ذلك، وذكر أنه لم يكن في دعائه شقيا، أي: أن الله تعالىٰ قد عوده استجابة دعائه.

قال القرطبي رحمه الله تعالىٰ: قال العلماء: يستحب للمرء أن يذكر في دعائه نعم الله تعالىٰ عليه وما يليق بالخضوع:

لأن قوله تعالىٰ: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ [سورة مريم:٤]؛ إظهار للخضوع.

وقوله: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤﴾ [سورة مريم:٤]؛ إظهار لعادات تفضله في إجابته أدعيته... ؛ أي لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك، أي: إنك عوَّدتني الإجابة فيما مضىٰ. يقال: شقي بكذا، أي: تعب فيه ولم يحصل مقصوده....وهذه وسيلة حسنة، أن يتشفع إليه بنعمه، ويستدر فضله بفضله، يروىٰ أن حاتم الجود لقيه رجل فسأله، فقال له حاتم: من أنت؟ قال: أنا الذي أحسنت إليه عام أول، فقال: مرحبا بمن تشفع إلينا بنا[1].

وقال ابن عاشور تعليقًا علىٰ ذكر زكريا لوهن عظمه وشيب رأسه: وهي وما بعدها تمهيد للمقصود من الدعاء وهو قوله: فهب لي من لدنك وليا، وإنما كان ذلك تمهيداً لما يتضمنه من اضطراره لسؤال الولد. والله يجيب المضطر إذا دعاه، فليس سؤاله الولد سؤال توسع لمجرد تمتع أو فخر. ووصف من حاله ما تشتد معه الحاجة إلىٰ الولد حالا ومئالا، فكان وهن العظم وعموم الشيب حالا مقتضيا للاستعانة بالولد مع ما يقتضيه من اقتراب إبان الموت عادة، فذلك مقصود لنفسه ووسيلة[2].

الآية الخامسة: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٦٦﴾ [سورة الفرقان:٦٥-٦٦]؛ فَوَصْفُ عذاب جهنم بأنه

---

(١) [١١/ ٧٨-٨٠].

(٢) [١٦/ ٦٣].

كان غراما وأنها ساءت مستقرا ومقاما، يحتمل أنه من مقول عباد الرحمن الذين أثنىٰ الله تعالىٰ عليهم، وحينئذ فإن الداعي يأتي به في دعوته؛ لأنه منها.

ويحتمل أنه من كلام الله تعالىٰ، أي: أنهم دعوا بصرف عذاب جهنم عنهم، فبين الله تعالىٰ أن عذابها هذا شأنه، وهذا وصفه في الشدة والإيلام.

وقد ذكر الاحتمالين بلا ترجيح النسفي وابن عاشور:

قال النسفي: ويصح أن يكون التعليلان متداخلين ومترادفين وأن يكونا من كلام الله تعالىٰ وحكاية لقولهم[١].

وقال ابن عاشور: جملة ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [سورة الفرقان:٦٥]، يجوز أن تكون حكاية من كلام القائلين. ويجوز أن تكون من كلام الله تعالىٰ معترضة بين اسمي الموصول[٢].

بينما يرىٰ القرطبي والسعدي أنه من تتمة دعائهم:

قال القرطبي: أي: إنهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقرب إلىٰ النجح[٣].

وقال السعدي: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [سورة الفرقان:٦٦]، وهذا منهم علىٰ وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، وليتذكروا منة الله عليهم، فإن صرف الشدة بحسب شدتها وفظاعتها يعظم وقعها ويشتد الفرح بصرفها[٤].

---

(١) [٢/ ٥٤٨].

(٢) [١٩/ ٧١].

(٣) [١٣/ ٧٢].

(٤) [٥٨٦].

والثمرة من ذلك: أنه إن كان من دعائهم جاز أن يقوله الداعي في السجود، وإن لم يكن من دعائهم فلا يجوز أن يقوله في السجود؛ لأنه قرآن، والمصلي منهي عن قراءة القرآن في السجود.

ويبنىٰ عليه مسألة أخرىٰ وهي: أنه يجوز ذكر وصف المدعو به في الدعاء، ولا يعد ذلك من التعدي في الدعاء، كوصف الموت والبعث والحساب والجنة والنار ونحو ذلك.

ويشكل علىٰ ذلك:

١- حديث عَبْدَ اللهِ بْنَ مُغَفَّلٍ، سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ، سَلِ اللهَ الْجَنَّةَ، وَتَعَوَّذْ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الطَّهُورِ وَالدُّعَاءِ**»(١).

٢- وحديث ابْنٍ لِسَعْد بن أبي وقاص، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعَنِي أَبِي، وَأَنَا أَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَنَعِيمَهَا، وَبَهْجَتَهَا، وَكَذَا، وَكَذَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَسَلَاسِلِهَا، وَأَغْلَالِهَا، وَكَذَا، وَكَذَا، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ، إِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَ الْجَنَّةَ أُعْطِيتَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ، وَإِنْ أُعِذْتَ مِنَ النَّارِ أُعِذْتَ مِنْهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ**» (٢).

ولو صح الحديثان فسبيل الجمع أن يقال: الوصف القليل لا بأس به كما جاء في القرآن، وإنما التعدي في الكلام الكثير الذي لا فائدة منه؛ فإن العلل والأوصاف التي جاءت في الدعوات القرآنية كانت بجمل يسيرة.

ويتفرع عن هذا مسألة أخرىٰ وهي: هل للداعي أن يسأل الله تعالىٰ كل حاجاته ولو صغرت، أم لا يسأل إلا الأشياء الكبيرة فقط؟

---

(١) [رواه أبو داود: ٩٦، وسنده منقطع، وحكم عليه مخرجو المسند بأنه حسن لغيره: ١٦٧٩٦].

(٢) [رواه أبو داود: ١٥٥٨، وقال الألباني: حسن صحيح، وقال مخرجو المسند: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف].

الظاهر من النصوص أن الداعي يسأل الله تعالىٰ حاجاته كلها، وإن كانت صغيرة، فإن الله تعالىٰ يحب كثرة المسائل، والفرق بين هذه المسألة والتي قبلها أن هذه مسائل كثيرة فلا يمنع منها، وإنما يمنع من أوصاف كثيرة لمسألة واحدة، ويعد تعديا.

وأما الأدلة علىٰ أن للداعي أن يسأل الله تعالىٰ كل حاجته وإن صغرت، فمنها:

١- قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [سورة البقرة:٢٠١-٢٠٢].

فأثنىٰ الله تعالىٰ عليهم بسؤالهم حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، وبين أنه يستجيب لهم.

ومعلوم أن الدنيا كلها وما كبر منها ليست شيئا أمام الآخرة؛ ولذا كانت لا تزن عند الله تعالىٰ جناح بعوضة، وكان متاعها بالنسبة للآخرة قليل، ومع ذلك أثني علىٰ من سأل حسنتها مع حسنة الآخرة.

٢- قول النبي ﷺ «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١).

فسأل الله تعالىٰ أن يصلح له شأنه كله، ومن شأنه ما يكون صغيرا حقيرا.

٣- قول النبي ﷺ: «**مَا عَلَىٰ الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ**» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: «**اللهُ أَكْثَرُ**»(٢).

والحجة فيه أنه نكَّر الدعوة فتشمل كل دعوة سواء كانت في شأن كبير أم صغير، جليل أم حقير. وأيضًا: أفاد أن الله تعالىٰ يحب كثرة الدعاء، ويستجيب أكثر، وكثرة الدعاء سبب لكثرة المسائل في الغالب، وكثرة المسائل تأتي علىٰ الكبير والصغير، والجليل والحقير.

---

(١) [رواه أبو داود:٥٠٩٠].

(٢) [رواه الترمذي: ٣٥٧٣، وقال: وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ].

٤- قول الله تعالىٰ في الحديث القدسي:«يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ... يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»(١).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وفي الحديث دليلٌ علىٰ أنَّ اللهَ يحبُّ أنْ يسأله العبادُ جميعَ مصالح دينهم ودنياهم، مِنَ الطَّعام والشراب والكسوة وغير ذلك، كما يسألونه الهداية والمغفرة...وكان بعضُ السَّلف يسأل الله في صلاته كلَّ حوائجه حتّىٰ ملحَ عجينه وعلفَ شاته...فإنَّ كلَّ ما يحتاج العبد إليه إذا سأله من الله فقد أظهرَ حاجتَه فيه، وافتقاره إلىٰ الله، وذلك يحبُّه الله، وكان بعضُ السَّلف يستحيي من الله أنْ يسأله شيئًا من مصالح الدنيا، والاقتداءُ بالسُّنَّة أولىٰ(٢).

قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «سلوا الله كل شيء حتىٰ الشسع، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ، إن لم ييسره لم يتيسر»(٣).

وقال عروة بن الزبير: إني أسأل الله في صلاتي حتىٰ أسأله الملح إلىٰ أهلي(٤).

ولو كان سؤاله لحاجاته داخل الصلاة؛ لقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ فَيَدْعُو»(٥). وقد سبق بيانه في مقالة سابقة.

قال الشيخ ابن عثيمين متعقبًا صاحب الزاد: وظاهر كلام المؤلِّف: أنه لا يدعو بغير ما وَرَدَ... فلا يدعو بشيء مِن أمور الدُّنيا مثل أن يقول: اللَّهُمَّ ارزقني بيتًا واسعًا، أو اللَّهُمَّ

---

(١) [رواه مسلم: ٢٥٧٧].

(٢) [جامع العلوم والحكم: ٢/ ٦٦٢].

(٣) [رواه ابن السني: ٣٤٩].

(٤) [رواه: البخاري: ٨٣٥ ومسلم: ٤٠٢].

(٥) [فيض القدير ٤/ ١١٠].

ارزقني زوجة جميلة، أو اللَّهُمَّ ارزقني مالاً كثيراً، أو اللَّهُمَّ ارزقني سيارة مريحة، وما أشبه ذلك؛ لأن هذا يتعلَّق بأمور الدُّنيا، حتىٰ قال بعض الفقهاء ﷺ: لو دعا بشيء مما يتعلَّق بأمور الدنيا بطلت صلاتُه، لكن هذا قول ضعيف بلا شَكٍّ. والصحيح أنه لا بأس أن يدعو بشيء يتعلَّق بأمور الدُّنيا؛ وذلك لأن الدُّعاء نفسه عبادة؛ ولو كان بأمور الدنيا، وليس للإنسان ملجأ إلا الله[1].

فتحصل مما سبق عرضه ما يلي:

١- أنه ينبغي أن يصدر الداعي لنفسه دعوته بذكر ضعفه وعجزه وافتقاره إلىٰ الله تعالىٰ، وتعداد نعمه سبحانه عليه، وعوائده ﷻ معه؛ كما في دعوة زكريا عليه السلام.

٢- ينبغي أن يصدر الداعي دعوته علىٰ كافر أو ظالم بما أنعم الله تعالىٰ علىٰ ذلك الكافر أو الظالم من نعم فلم يشكرها، كما في دعوة موسىٰ وهارون علىٰ فرعون.

٣- يجوز أن يعلل الداعي طلبه ولو كان الله تعالىٰ يعلم علة طلبه؛ وذلك مثل تعليل الخليل وزكريا وعيسىٰ عليهم السلام دعواتهم.

٤- يجوز أن يذكر الداعي شيئا من أوصاف ما يدعو به؛ لتعظيمه في نفسه، وبيان شدة حاجته إليه؛ كما في التعوذ من النار وذكر سوء مستقرها. ولا يطنب في الوصف بل يكون يسيرا؛ لأنه الوارد في القرآن، والوصف الكثير نهىٰ عنه الصحابة رضي الله عنهم.

٥- يجوز أن يسأل العبد ربه سبحانه كل حاجاته، ما كبر منها وما صغر، وما جلَّ وما حقر، وما كثر وما قل، داخل الصلاة وخارجها؛ كما دلت علىٰ ذلك السنة النبوية وفعل السلف الصالح ﷺ تعالىٰ.

٦- يجوز أن يذكر العبد في دعوته وصفا يحتاجه فيما يسأل؛ كأن يقول: هب لي زوجة جميلة تعفني، أو غنية تكفيني، أو ولدا صالحا يعينني...:

---

(١) [الشرح الممتع:٣/ ٢٠٥-٢٠٦].

لأن الخليل عليه السلام قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة الصافات:١٠٠].

وقال زكريا عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [سورة آل عمران:٣٨]، وقال أيضًا : ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [سورة مريم:٦].

٧- ينبغي للداعي أن يُذيِّل مسألته بما يناسبها من الثناء علىٰ الله تعالىٰ وذكر صفاته:

كما ذيَّل الخليل وزكريا عليهما السلام دعوتيهما بقولهما: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة آل عمران:٣٨].

وذيَّل موسىٰ عليه السلام دعوته بقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [سورة طه:٣٥].

وذيَّل المسيح عليه السلام دعوته بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [سورة المائدة:١١٤].

٨- إذا دعا بدعاء قرآني فله أن يذكر ما في الدعوة من علل وأسباب وتفصيلات داخل الصلاة وخارجها، وفي السجود وغيره؛ لأنه يدعو ولا يقرأ، لكن بشرط أن تكون مناسبة لحاله، فلا يدعو شاب قوي يريد الولد بدعوة زكريا عليه السلام فيصدرها قائلا: رب إني وهن العظم مني، واشتعل الرأس شيبا... وهو لم يهن عظمه ولم يشب رأسه. وإنما يقتصر علىٰ الدعوة فيقول: هب لي من لدنك وليا، أو يدعو بدعوته الثانية: رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء.

المسألة الثانية عشرة: دعوات المؤمنين

زخر القرآن الكريم بالكثير من دعوات المؤمنين التي ذكرها الله تعالىٰ في معرض الثناء عليهم، وهذه الدعوات كدعوات الرسل عليهم السلام في تنوعها، وفي أن منها ما هو خاص ومنها ما هو عام، ومنها ما هو لحظ الدنيا ومنها ما هو لحظ الآخرة..

وترتيبي لها هنا سيكون حسب ترتيب سور القرآن في المصحف، مع ذكر تحت كل موضع منها ما فيه من مهمات الفقه والفائدة:

الموضع الأول: قول الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [سورة البقرة:٢٠٠-٢٠٢].

هذه الآيات جاءت في ختام آيات الحج، ونزولها كان قبل منع المشركين من الحج، فيدعون بأمور دنيوية، بينما يدعو المؤمنون بأمور الدنيا والآخرة كما هو مفصل في الآيات، والذين ليس لهم في الآخرة خلاق هم المشركون(١).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم من الأعراب يجيئون إلىٰ الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن. لا يذكرون من أمر الآخرة شيئا، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [سورة البقرة:٢٠٠] (٢)، وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [سورة البقرة:٢٠١]، فأنزل الله: ﴿أُولَٰئِكَ

---

(١) [ينظر: تفسير ابن عاشور: ٢/ ٢٤٧].

(٢) [رواه ابن أبي حاتم: ٢/ ٣٥٧].

لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ [سورة البقرة:٢٠٢]، ولهذا مدح من يسأله للدنيا والأخرىٰ[١].

فسؤال المؤمنين ربهم سبحانه حسنة الدنيا والآخرة من أفضل الدعاء وأجمعه؛ ولذا أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ الداعين به، وكان هو أكثر دعاء النبي عليه الصلاة والسلام كما ذكر أنس رضي الله عنه[٢].

قال السعدي رحمه الله تعالىٰ: هذا الدعاء أجمع دعاء وأكمله، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، والحث عليه[٣].

الموضع الثاني: قول الله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [سورة البقرة:٢٥٠]. وهذا الدعاء جاء في مواجهة أهل الإيمان من بني إسرائيل بقيادة طالوت أهل الكفر منهم بقيادة جالوت. والإفراغ هو الصب، أي: اصبب علينا صبرا.

قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: لما واجه حزب الإيمان -وهم قليل- من أصحاب طالوت لعدوهم أصحاب جالوت -وهم عدد كثير- ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [سورة البقرة:٢٥٠]؛ أي: أنزل علينا صبرا من عندك ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [سورة البقرة:٢٥٠] ؛ أي: في لقاء الأعداء وجنبنا الفرار والعجز ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [سورة البقرة:٢٥٠] [٤].

وهذا من أعظم الدعاء الجالب للنصر؛ لأن فيه طلبا للصبر وللنصر، وإنما الظفر بالصبر علىٰ شدة الحرب، وبأس العدو، وفيه طلب ثبات الأقدام عن الفرار أو التزحزح عن المكان، وهذا من آثار الصبر، وهو مما يفزع العدو ويصيبهم بالفشل والهزيمة، ثم فيه طلب النصر

---

(١) [تفسير ابن كثير: ١/ ٥٥٨].

(٢) [رواه البخاري: ٦٣٨٩].

(٣) [تفسيره: ٩٣].

(٤) [١/ ٦٦٩].

علىٰ الكفار، وإذا تحقق الصبر تحقق الثبات، وإذا تحقق الصبر والثبات تحقق النصر، فكان جماع النصر الصبر.

وهذا الدعاء العظيم وإن تأكد في الحرب ومواجهة الأعداء، وهو سلاح المجاهدين في الميادين، فإن القاعدين ينبغي أن لا يغفلوا عنه؛ لأن من أكثر منه في الرخاء والسلم فحري أن يستجاب له إن دعا به في الشدة والحرب؛ لقول النبي ﷺ:«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»(١).

وسأل سحرة فرعون ربهم ﷻ أن يفرغ عليهم صبر لما آمنوا وهُددوا بأشد العذاب، فقالوا في دعائهم: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [سورة الأعراف:١٢٦]، فسألوا الله تعالىٰ الصبر علىٰ الفتنة والابتلاء فيه، والثبات علىٰ الإسلام إلىٰ الممات.

وقريب من هذا الدعاء ما جاء في دعاء أتباع الرسل السابقين عليهم السلام حين قاتلوا أعداءهم، وهو الدعاء المذكور في قول الله تعالىٰ : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾ [سورة آل عمران:١٤٦-١٤٧].

و(الربيون) جمع رِبِّيٌ وهو المتبع لشريعة الرب، مثل: الرباني، والمراد بهم هنا: أتباع الرسل وتلامذة الأنبياء...ومحل العبرة هو ثبات الربانيين علىٰ الدين مع موت أنبيائهم ودعاتهم.

وقوله: فما وهنوا، أي: الربيون؛ إذ من المعلوم أن الأنبياء لا يَهِنون فالقدوة المقصودة هنا هي الاقتداء بأتباع الأنبياء، أي: لا ينبغي أن يكون أتباع من مضىٰ من الأنبياء، أجدر بالعزم من أتباع محمد ﷺ(٢).

---

(١) [رواه الترمذي: ٣٣٨٢، وصححه الحاكم: ١٩٩٧، وحسنه الألباني].

(٢) [التحرير والتنوير: ٤/ ١١٨].

وصيغة القصر في ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ [سورة آل عمران:١٤٧]؛ قصر إضافي لرد اعتقاد من قد يتوهم أنهم قالوا أقوالا تنبئ عن الجزع، أو الهلع، أو الشك في النصر، أو الاستسلام للكفار(١). وفي دعائهم طلب مغفرة الذنوب؛ لأن الذنوب مانع من موانع النصر، وهذا من حسن ظنهم بالله تعالىٰ، واتهام أنفسهم، وهذا الإقرار بالذنوب وطلب مغفرتها سبب من أسباب النصر بإزالة مانعه، مع الدعاء بالثبات والنصر كالدعاء السابق.

فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم، فلا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة آل عمران:١٤٨]؛ من النصر والظفر والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [سورة آل عمران:١٤٨]؛ وهو الفوز برضا ربهم، والنعيم المقيم(٢). وهذا الدعاء كسابقه ينبغي للمؤمن أن يحرص عليه في السلم وفي الحرب.

الموضع الثالث: الدعاء المذكور في الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة، وفيه مسائل:

المسألة الأولىٰ: في قول الله تعالىٰ حكاية عن المؤمنين: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [سورة البقرة:٢٨٥]. فأثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين بإيمانهم وطاعتهم ثم ذكر من دعائهم (**غفرانك**) قال القرطبي: وقوله (**غفرانك**) مصدر كالكفران والخسران، والعامل فيه فعل مقدر، تقديره: اغفر غفرانك، قال الزجاج وغيره: نطلب أو أسأل غفرانك(٣).

وقال ابن كثير: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [سورة البقرة:٢٨٥]؛ سؤال للغفر والرحمة واللطف(٤).

---

(١) [التحرير والتنوير: ٤/ ١٢٠].

(٢) [تفسير السعدي: ١٥١].

(٣) [٣/ ٤٢٩].

(٤) [١/ ٧٣٦].

وهذا الدعاء (**غفرانك**) هو من صيغ الاستغفار القرآني، وسأفرد الاستغفار القرآني بمقالة مستقلة إن شاء الله تعالىٰ، وقلَّ من الناس من يستغفر بهذه الصيغة رغم ورودها في القرآن.

المسألة الثانية: في قول الله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [سورة البقرة:٢٨٦]. وقد ورد في الحديث أن الله تعالىٰ قد استجاب هذا الدعاء، وقال سبحانه: قَدْ فَعَلْتُ[(١)].

قال بعض الناس: إذا كان هذا الدعاء قد أجيب فطلب ما فيه من باب تحصيل الحاصل، وهذا لا فائدة فيه فيكون هذا الدعاء عبادة محضة ليس المقصود به السؤال، وهذا القول قد قاله طائفة في جميع الدعاء: أنه إن كان المطلوب مقدرا فلا حاجة إلىٰ سؤاله وطلبه، وإن كان غير مقدر لم ينفع الدعاء -دعوت أو لم تدع- فجعلوا الدعاء تعبدا محضا كما قال ذلك طائفة أخرىٰ في التوكل[(٢)].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وقد زعم قوم أن مسألة العبد ربه أن لا يؤاخذه بما نسي أو أخطأ، إنما هو فعل منه لما أمره به ربه تبارك وتعالىٰ، أو لما ندبه إليه من التذلل له والخضوع بالمسألة، فأما علىٰ وجه مسألته الصفح، فما لا وجه له عندهم[(٣)].

وقد رد ذلك الطبري وابن تيمية، وذكر ابن تيمية أوجهًا للإجابة عليه:

---

(١) [رواه مسلم: ١٢٦].

(٢) [فتاوىٰ ابن تيمية: ١٤/ ١٤٣].

(٣) [٦/ ١٣٥].

الأول: أن العمل الذي لا مصلحة للعبد فيه لا يأمر الله به، وهذا بناء علىٰ قول السلف: إن الله لم يخلق ولم يأمر إلا لحكمة كما لم يخلق ولم يأمر إلا لسبب. والذين ينكرون الأسباب والحِكم يقولون بل يأمر بما لا منفعة فيه للعباد البتة وإن أطاعوه وفعلوا ما أمرهم به[١].

الثاني: أن الله تعالىٰ إذا قدّر أمرا فإنه يقدر أسبابه، والدعاء من جملة أسبابه كما أنه لما قدر النصر يوم بدر وأخبر النبي ﷺ قبل وقوعه أصحابه بالنصر وبمصارع القوم كان من أسباب ذلك استغاثة النبي ﷺ ودعاؤه[٢].

الثالث: أن ثبوت هذا الحكم في حق آحاد الأمة قد لا يحصل إلا بطاعة الله ورسوله، فإذا عصىٰ الله ذلك الشخص العاصي عوقب عن ذلك بسلب هذه النعمة وإن كانت الشريعة لم تنسخ. يبين هذا: أن في هذا الدعاء سؤال الله بالعفو والمغفرة والرحمة والنصر علىٰ الكفار، ومعلوم أن هذا ليس حاصلا لكل واحد من أفراد الأمة بل منهم من يدخل النار، ومنهم من ينصر عليه الكفار، ومنهم من يسلب الرزق؛ لكونهم فرطوا في طاعة الله ورسوله فيسلبون ذلك بقدر ما فرطوا أو قصروا، وقول الله: «**قد فعلت**» يقال فيه شيئان:

أحدهما: أنه قد فعل ذلك بالمؤمنين المذكورين في الآية، والإيمان المطلق يتضمن طاعة الله ورسوله.

فمن لم يكن كذلك نقص إيمانه الواجب فيستحق من سلب هذه النعم بقدر النقص، ويعوق الله عليه ملاذ ذلك، ولم يستحق من الجزاء ما يستحقه من قام بالإيمان الواجب.

الثاني: أن يقال: هذا الدعاء استجيب له في جملة الأمة، ولا يلزم من ذلك ثبوته لكل فرد، وكلا الأمرين صحيح؛ فإن ثبوت هذا المطلوب لجملة الأمة حاصل، ولولا ذلك لأهلكوا بعذاب الاستئصال كما أهلكت الأمم قبلهم... وأما حصول المطلوب للآحاد منها فلا يلزم

---

(١) [الفتاوىٰ: ١٤/ ١٤٤].

(٢) [الفتاوىٰ: ١٤/ ١٤٨].

حصوله لكل عاص؛ لأنه لم يقم بالواجب ولكن قد يحصل للعاصي من ذلك بحسب ما معه من طاعة الله تعالىٰ[١].

المسألة الثالثة: ختم هذا الدعاء المبارك بسؤال أربع: العفو والمغفرة والرحمة والنصر، وهي من أعظم الدعوات التي يحتاجها العبد.

قال شيخ الإسلام: سألوه العفو والمغفرة والرحمة والنصر علىٰ الأعداء؛ فإن بهذه الأربعة تتم لهم النعمة المطلقة، ولا يصفو عيش في الدنيا والآخرة إلا بها، وعليها مدار السعادة والفلاح؛ فالعفو متضمن لإسقاط حقه قِبَلِهِم ومسامحتهم به، والمغفرة متضمنة لوقايتهم شر ذنوبهم وإقباله عليهم ورضاه عنهم؛ بخلاف العفو المجرد؛ فإن العافي قد يعفو، ولا يقبل علىٰ من عفا عنه، ولا يرضىٰ عنه، فالعفو ترك محض، والمغفرة إحسان وفضل وجود، والرحمة متضمنة للأمرين مع زيادة الإحسان والعطف والبر، فالثلاثة تتضمن النجاة من الشر والفوز بالخير، والنصرة تتضمن التمكين من إعلان عبادته، وإظهار دينه، وإعلاء كلمته، وقهر أعدائه... [٢].

الموضع الرابع: سؤال الراسخين في العلم: قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾ [سورة آل عمران:٧-٩].

يُحتمل أن هذا الدعاء من قول الراسخين في العلم –وهو الأرجح– ويحتمل أن الله تعالىٰ لما ذكر قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [سورة آل عمران:٧]. أرشد نبيه عليه الصلاة والسلام إلىٰ هذا الدعاء.

وفي هذا الدعاء المبارك مسائل:

---

(١) [الفتاوىٰ: ١٤/ ١٤٨-١٥١].

(٢) [الفتاوىٰ: ١٤/ ١٤٠].

المسألة الأولىٰ: أنه إذا كان هذا دعاء الراسخين في العلم، وقد أثنىٰ الله تعالىٰ عليهم برسوخهم فيه وبدعائهم حين ذكره في كتابه في معرض الثناء عُلم أن هذا الدعاء من أنفع الدعاء وأفضله، وأنه ينبغي للمؤمن أن يحافظ عليه. سئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عن الراسخين في العلم فقال: العالم العامل بما علم المتبع له(١). وورد تفسير الراسخين في العلم في حديث مرفوع عند الطبراني ولكنه ضعيف.

المسألة الثانية: أن هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [سورة آل عمران:٨] يشبهه دعاء النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ»(٢).

وزيغ القلب هو فساده وميله عن الدين(٣). ففي الآية سؤال عدم الميل عن الدين، وفي الحديث سؤال الثبات عليه.

وثبت أن النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء القرآني إذا قام من الليل فيقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ، اللَّهُمَّ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا، وَلَا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ»(٤).

وورد أن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قرأ هذا الدعاء في الركعة الثالثة من صلاة المغرب(٥).

ونقل ابن القاسم عن الإمام مالك قوله: وليس عليه العمل(٦).

---

(١) [تفسير البغوي: ٢/ ١١].

(٢) [رواه الترمذي: ٢١٤٠].

(٣) [تفسير القرطبي: ٤/ ٢٠].

(٤) [رواه أبو داود: ٥٠٦١، وصححه ابن حبان: ٥٥٣١].

(٥) [رواه مالك: ٢٥٩].

(٦) [هامش الموطأ نسخة الأعظمي: ٢/ ١٠٧].

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: هو ضرب من القنوت والدعاء لما كان فيه من أمر أهل الردة. والقنوت جائز في المغرب عند جماعة من أهل العلم وفي كل صلاة أيضًا وأوكد ذلك في الصبح[١].

ويستفاد من فعل أبي بكر ولو لم يكن العمل عليه في الركعة الثالثة من صلاة المغرب: المواظبة علىٰ هذا الدعاء وأمثاله في أحوال الفتن، وانقلاب القلوب، وتغير أحوال الناس، وكثرة السوء؛ لطلب النجاة من زيغ القلوب.

المسألة الثالثة: أنهم سألوا الله تعالىٰ الرحمة ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [سورة آل عمران:٨]؛ أي: من عندك فإن **(لدن)** تستعمل بمعنىٰ **(عند)** وإن لم تكن مرادفة لها -بل هي أخص وأقرب مكانًا- ولا لـ (لدىٰ)... ولا تستعمل **(لدن)** إلا في الشيء الحاضر، فهي أدل علىٰ الاختصاص[٢].

وفيها ختم الدعاء بالثناء علىٰ الله تعالىٰ بأسماء الله تعالىٰ المتضمنة صفات الجلال والجمال، ويختار من الأسماء ما يناسب مسألته، ولما كانت المسألة هنا هبة الرحمة ناسب أن يختم الدعاء باسم الوهاب ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [سورة آل عمران:٨].

المسألة الرابعة: قول الله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [سورة آل عمران:٩]، ختم الدعاء بسؤال عدم زيغ القلب، ووهب الرحمة، هو لأجل إيمان الراسخين في العلم بالبعث والجزاء يوم القيامة فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء هو ما يتعلق بالآخرة.

الموضع الخامس: من دعاء المتقين، قال الله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة آل عمران:١٦].

---

(١) [الاستذكار: ١/ ٤٢٩، وتبعه القرطبي في تفسيره: ٤/ ٢٠].

(٢) [تفسير المنار: ٣/ ١٨٩].

لما ذكر الله تعالىٰ ما زين للناس من شهوات الدنيا أعقبها بذكر ما هو خير منها وهو ما أعده للمؤمنين في الجنة، ثم ذكر سبحانه أنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة آل عمران:١٦]، ثم ذكر جملة من أوصافهم ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة آل عمران:١٧].

وفي هذا الدعاء العظيم التوسل إلىٰ الله تعالىٰ بالإيمان به في طلب المغفرة من الذنوب، والوقاية من النار، مما يدل علىٰ فضل الإيمان وفضل التوسل به، وقد جاء ذلك في القرآن كثيرا، مثل قول الحواريين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة آل عمران:٥٣].

بل إن الله تعالىٰ نوه بالمؤمنين في مجادلة أهل النار بأنهم يسألونه المغفرة والرحمة متوسلين إليه سبحانه بإيمانهم به، فيقول سبحانه لأهل النار: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة المؤمنون:١٠٩].

الموضع السادس: دعاء امرأة عمران قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة آل عمران:٣٥-٣٦].

فنذرت امرأة عمران بأن تسخر حملها لطاعة الله تعالىٰ وخدمة بيته، وسألت الله تعالىٰ قبول هذه الطاعة، وذيلت دعاءها بالثناء عليه سبحانه بإثبات أنه سميع لدعائها، عليم بحالها وبما في قلبها.. ثم لما وضعت مريم عوذتها بالله تعالىٰ وعوذت ذريتها من الشيطان الرجيم.

ففيه الدعاء بقبول النذور والقرابين والصدقات، وفيه تعويذ الذرية من الشيطان، وقد ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما من الشيطان[1].

---

(١) [رواه البخاري: ٣٣٧١].

الموضع السابع: دعاء حواريي عيسىٰ عليه السلام، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة آل عمران:٥٢-٥٣]، فأعلنوا إيمانهم، وسألوا الله تعالىٰ أن يجعلهم مع الذين شهدوا لرسل الله بالتبليغ، وبالصدق، وهذا مؤذن بأنهم تلقوا من عيسىٰ- فيما علمهم إياه- فضائل من يشهد للرسل بالصدق. ونوه الله تعالىٰ بدعائهم هذا في موضع آخر كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة المائدة:١١١]، ومن بقي منهم علىٰ إيمانه بعيسىٰ وقت بعثة محمد ﷺ آمنوا به كما آمنوا بعيسىٰ، وسألوا الله تعالىٰ أن يكتبهم شاهدين علىٰ صدق محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة المائدة:٨٣].

وهذا الدعاء صالح أن يدعو به كل مؤمن، فيعلن إيمانه ويسأل الله تعالىٰ أن يكتبه مع الشاهدين الذين يشهدون بصدق الرسل عليهم السلام.

الموضع الثامن: دعاء الذاكرين المتفكرين المذكور في آخر سورة آل عمران ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [سورة آل عمران:١٩٠-١٩٤].

وفي هذا الدعاء العظيم مسائل:

المسألة الأولىٰ: أن التفكر في خلق الكون وما فيه من أجل العبادات، وهو سبب لتعظيم الله تعالىٰ والخشوع له وكثرة دعائه، وأنه ينبغي للمتفكر حال تفكره أن يلهج بهذا الدعاء القرآني

ويكرره ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [سورة آل عمران:١٩١]؛ وذلك لأن الله تعالىٰ لما أثنىٰ علىٰ أولي الألباب المتفكرين ذكر أنهم يقولون ذلك حال تفكرهم. وتواطؤهم عليه مع ثناء الله تعالىٰ عليهم به يدل علىٰ أنه دعاء فاضل. ومن فضائل هذا الدعاء أن فيه إثبات حكمة الله تعالىٰ في خلقه، ونفي العبث عنه سبحانه.

المسألة الثانية: أن قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ [سورة آل عمران:١٩٢]؛ تعليل لدعائهم ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [سورة آل عمران:١٩١]، وهو دليل علىٰ ما ذكرناه في مقالة سابقه من جواز تعليل الدعاء وتفصيله؛ فالداعي له أن يذكر لم دعا بدعائه، فكأن هؤلاء المتفكرين يقولون: قنا عذاب النار فإن من أدخلته إياها فقد أهنته وأذللته.

المسألة الثالثة: أن قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ [سورة آل عمران:١٩٣]؛ فيه التوسل إلىٰ الله تعالىٰ في الدعاء بالإيمان، فهم توسلوا إليه بالإيمان ثم سألوه مسائلهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [سورة آل عمران:١٩٣].

المسألة الرابعة: أن للداعي أن يدعو بهذا الدعاء: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ [سورة آل عمران:١٩٣]، ولو كان لم يدرك النبي عليه الصلاة والسلام ولم يسمع منه؛ لأن من سمع القرآن فكأنما لقي النبي عليه الصلاة والسلام وسمع منه[(١)].

المسألة الخامسة: أن دعاءهم ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [سورة آل عمران:١٩٤]، يتضمن وعد الله تعالىٰ في الدنيا بالعاقبة لهم والنصر

---

(١) [ينظر: تفسير القرطبي: ٤/ ٣١٧].

علىٰ أعدائهم، كما يتضمن وعده سبحانه في الآخرة بالرضا عنهم ودخولهم الجنة، وهذا من الدعاء الجامع الذي يجمع حظي الدنيا والآخرة.

المسألة السادسة: أنهم سألوا الله تعالىٰ ما وعدهم علىٰ ألسنة رسله عليهم السلام مع يقينهم بأن الله تعالىٰ لا يخلف الميعاد؛ ولذا نحا بعض المفسرين إلىٰ أن هذا السؤال تعبد محض. وهذا غلط. فإن وعد الله تعالىٰ معلق بشرط الإيمان والعمل الصالح.

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: الوعد معلق بشروط منها الرغبة إليه سبحانه وتعالىٰ وسؤاله أن ينجزه لهم كما أنه معلق بالإيمان وموافاتهم به وأن لا يلحقه ما يحبطه، فإذا سألوه سبحانه أن ينجز لهم ما وعدهم تضمن ذلك توفيقهم وتثبيتهم وإعانتهم علىٰ الأسباب التي ينجز لهم بها وعده كان هذا الدعاء من أهم الأدعية وأنفعها وهم أحوج إليه من كثير من الأدعية[1].

المسألة السابعة: انتظم في هذا الدعاء العظيم طلب جميع الخير، وصرف كل الشر.

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: الشر المستعاذ منه نوعان:

أحدهما: موجود يُطلب رفعه.

والثاني: معدوم يُطلب بقاؤه علىٰ العدم وأن لا يوجد. كما أن الخير المطلق نوعان:

أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه.

والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم، وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالىٰ حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [سورة آل عمران:١٩٣]، فهذا الطلب لدفع الشر الموجود؛ فإن الذنوب والسيئات شر.

---

(١) [حادي الأرواح:٩٠].

ثم قال: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [سورة آل عمران:١٩٣]، فهذا طلب لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتىٰ يتوفاهم عليه. فهذان قسمان ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [سورة آل عمران:١٩٤]، فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه ثم قال: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [سورة آل عمران:١٩٤]، فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم وهو خزي يوم القيامة، فانتظمت الآيتان للمطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب، قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما: المغفرة ودوام الإسلام إلىٰ الموت، ثم اتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة وهما أن يعطوا ما وعدوه علىٰ ألسنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة(١).

المسألة الثامنة: في تكرارهم نداء ربهم ﷻ (ربنا) في أول دعائهم وأثنائه خمس مرات، مشروعية ذلك، وأنه من الإلحاح المطلوب في الدعاء؛ لما فيه من الإقبال علىٰ الله تعالىٰ، وإظهار الفاقة له سبحانه.

الموضع التاسع: دعاء المستضعفين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [سورة النساء:٧٥].

نزلت هذه الآية في المستضعفين من المؤمنين في مكة ممن لم يستطيعوا الهجرة إلىٰ المدينة، ومنهم ابن عباس وأمه ﭫ، فكانوا يدعون بهذا الدعاء، فاستجاب الله تعالىٰ لهم فمنهم من هاجر بعد ذلك، ومنهم من بقي فلما فتح رسول الله ﷺ مكة ولىٰ عليهم عتاب بن أسيد وجعله الله لهم نصيرا ينصف المظلومين من الظالمين. وهي دعوة صالحة لكل من يُمنع من دينه، ويؤذىٰ بسببه أن يدعو بهذا الدعاء.

الموضع العاشر: دعاء بني إسرائيل لما تابوا من عبادة العجل، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

---

(١) [بدائع الفوائد: ٢/ ٢٠٧-٢٠٨].

﴿ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [سورة الأعراف:١٤٩]؛ أي: ندموا على عبادة العجل، تقول العرب لكل نادم على أمر: قد سقط في يديه...وكان هذا الندم والاستغفار منهم بعد رجوع موسى إليهم(١).

وهو يشبه دعاء آدم وحواء لما أكلا من الشجرة ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأعراف:٢٣].

ويشبه دعاء نوح عليه السلام لما عاتبه الله تعالى بسؤاله نجاة ابنه الكافر ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة هود:٤٧]، وهذا الدعاء نوع من أنواع الاستغفار فيحسن بالمؤمن أن يحفظه ويدعو به، ولا سيما عند التوبة من الذنب.

وقريب منه دعاء ملكة سبأ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النمل:٤٤].

الموضع الحادي عشر: دعاء أصحاب موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة يونس:٨٤-٨٦].

فهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة يونس:٨٥-٨٦]؛ من أنفع الدعاء في الوقاية من فتنة الظالمين وتسلط الكافرين.

وفي قوله: [لا تجعلنا فتنة] ثلاثة أقوال:

أحدها: لا تهلكنا بعذاب على أيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من قِبَلِك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم.

والثاني: لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

والثالث: لا تسلطهم علينا فيفتتنون بنا، لظنهم أنهم على حق(١).

---

(١) [تفسير البغوي: ٣ / ٢٨٣].

والآية تحتمل كل هذه المعاني، ولو قصدها الداعي جميعا لكان قصده صحيحا.

وفي هذا الدعاء حرص المؤمنين علىٰ هداية الخلق أجمعين، وذلك بدعائهم أن لا يكونوا فتنة لأعدائهم بما يظنون أنهم علىٰ حق وهم علىٰ باطل. ففيه دعاء للمؤمن ودعاء للظالم أو الكافر المتسلط أن لا يفتتن بسبب تسليطه، فيا لله العظيم ما أعظم نفع الإيمان للمؤمن! وما أعظم نفع المؤمن لغيره!

وقد دعا بنحو هذا الدعاء الخليل عليه السلام ومن آمن معه فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥﴾ [سورة الممتحنة:٥].

الموضع الثاني عشر: دعوة فتية الكهف رحمهم الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [سورة الكهف:١٠]، وهو دعاء نافع لمن فرَّ من الفتنة في الدين.

والرشد: هو إصابة الحق والنفع والصلاح، والعبد محتاج إلىٰ الرشد في كل أحواله، إلا أن حاجته إليه أشد في أحوال الفتن واختلاط الأمر، حتىٰ لا يختار أمرًا إلا ويكون فيه صلاحه ونفعه وثباته علىٰ دينه.

ومن فقد الرشد وقع فيما يهلكه ويفتنه ويذهب دينه.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [سورة الكهف:١٠]؛ أي: رحمة من خزائن رحمتك وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء، وفي **(لدن)** معنىٰ العندية والانتساب إليه، فذلك أبلغ مما لو قالوا: آتنا رحمة؛ لأن الخلق كلهم بمحل الرحمة من الله، ولكنهم سألوا رحمة خاصة وافرة في حين توقع ضدها، وقصدوا الأمن علىٰ إيمانهم من الفتنة؛ ولئلا يلاقوا في اغترابهم مشقة وألما، وأن لا يهينهم أعداء الدين فيصيروا فتنة للقوم الكافرين. ثم سألوا الله أن يقدر لهم أحوالا تكون عاقبتها حصول ما خولهم من الثبات علىٰ الدين الحق، والنجاة من مناوأة

---

(١) [زاد المسير: ٢/ ٣٤٤].

المشركين. فعبر عن ذلك التقدير بالتهيئة التي هي إعداد أسباب حصول الشيء ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [سورة الكهف:١٠]؛ أي: الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿رَشَدًا ۝١٠﴾ [سورة الكهف:١٠]، حتىٰ نكون بسببه راشدين مهتدين[١].

الموضع الثالث عشر: دعاء عباد الرحمن المذكور في صفاتهم في آخر الفرقان، فقد ذكر الله تعالىٰ لهم دعوتين أثنىٰ بهما عليهم:

الدعوة الأولىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [سورة الفرقان:٦٥-٦٦]، وقد مضىٰ الكلام علىٰ هذا الدعاء في مقالة: (تفصيل الدعاء وتعليله).

الدعوة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ [سورة الفرقان:٧٤]، وهذه الدعوة العظيمة تضمنت أمرين:

١- سؤال قرة العين في الزوجة والولد، وهم إذا كانوا قرة عين للرجل سعد سعادة لا توصف، وإذا لم يجعلهم الله تعالىٰ قرة عين له شقي ولو ملك الجاه الكبير، والمال الكثير. وسعادة الرجل الحقيقية في الدنيا هي سعادته في بيته بأهله وولده.

سُئل الْحَسَن البصري عن قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [سورة الفرقان:٧٤] أَفِي الدُّنْيَا أَمْ فِي الْآخِرَةِ؟ قَالَ: لَا بَلْ فِي الدُّنْيَا قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: الْمُؤْمِنُ يَرَىٰ زَوْجَتَهُ وَوَلَدَهُ مُطِيعِينَ اللهَ ﷻ، قَالَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَقَرُّ لَعَيْنِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَرَىٰ زَوْجَتَهُ وَوَلَدَهُ يُطِيعُونَ اللهَ ﷻ ذِكْرُهُ[٢].

٢- سؤال الإمامة في الدين، وهي لا تكون إلا للمتقين الذين جمعوا بين الصبر واليقين بدليل قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن

---

(١) [ينظر: تفسير النسفي: ٢/ ٢٨٧، وتفسير ابن عاشور: ١٥/ ٢٦٦].

(٢) [رواه ابن أبي الدنيا في العيال: ٤٣٥].

ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ [سورة البقرة:١٢٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ [سورة السجدة:٢٤].

قال ابن عاشور: وهذا يقتضي أنهم يسألون لأنفسهم بلوغ الدرجات العظيمة من التقوىٰ فإن القدوة يجب أن يكون بالغا أقصىٰ غاية العمل الذي يرغب المهتمون به الكمال فيه. وهذا يقتضي أيضاً أنهم يسألون أن يكونوا دعاة للدخول في الإسلام وأن يهتدي الناس إليه بواسطتهم(١).

فتضمَّنت هذه الدعوة المباركة سؤال التقوىٰ والصبر واليقين بطريق اللزوم؛ لأن الإمامة لا تكون إلا بها، مع إمامة المتقين، ومن آثار الإمامة أن لصاحبها أجر من تبعه في الدين من دون أن ينقص من أجور التابعين له شيئا، وفي هذا من الفضل ما لا يخفىٰ، فكانت هذه الدعوة جامعة لخير الدنيا وسعادتها وراحتها وجاهها مع الفوز يوم القيامة بالأجور العظيمة؛ فينبغي للمؤمن الإكثار منها.

الموضع الرابع عشر: دعاء من بلغ الأربعين: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ [سورة الأحقاف:١٥]، وفي هذا الدعاء المبارك مسائل عدة:

المسألة الأولىٰ: أن شكر الله تعالىٰ علىٰ نِعَمِهِ هدايةٌ وتوفيق من الله تعالىٰ للعبد، وعليه فلا بد أن يسأل الله تعالىٰ توفيقه لذلك، وإلهامه إياه. وأوزعني معناها: ألهمني. وطلب إلهام الشكر لا بد أن يستحضر فيه العبد نِعَمَ الدين والدنيا؛ فإن كثيرا من الناس في شكره أو دعائه يستحضر نعم الدنيا من الأمن والرزق والعافية والمال والولد ونحوها، وينسىٰ نعم الدين وهي أعظم وأكثر.

---

(١) [التحرير والتنوير: ١٩/ ٨٣].

المسألة الثانية: أن هذا الدعاء القرآني يتأكد في حق من بلغ الأربعين، وإن كان مشروعا فيمن هو دونه؛ فإن نعم الله تعالىٰ علىٰ العبد تبدأ معه قبل الحمل به، وتتابع عليه بعد ولادته وطفولته وشبابه وكهولته وهرمه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلىٰ الله، ﷻ، ويعزم عليها.... قال مسروق: إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك[١].

المسألة الثالثة: نقل عدد من المفسرين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأنه كان يدعو بهذا الدعاء فلحقته بركته، واستجيب له في والديه وذريته فأسلموا جميعا[٢].

المسألة الرابعة: أن تصدير الآية بوصية الولد أن يحسن لوالديه دليل علىٰ أهمية بر الوالدين، وأن التوفيق لبرهما نعمة تتطلب سؤال الله تعالىٰ إلهام شكره عليها، وأن الدعاء للوالدين في حياتهما وبعد موتهما هو من برهما، وأنه إذا بلغ الأربعين فلا ينشغل بالأهل والولد عن برهما والدعاء لهما. فإذا عُلم ذلك علمت أهمية هذا الدعاء لمن بلغ الأربعين.

المسألة الخامسة: أن مما تدخله النيابة في عمل الولد عن والده مع الحج والصدقة: شكر النعم. فشكر الولد نعم الله تعالىٰ علىٰ أبويه يصل نفعه لهما.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وما شكر الولد ربه علىٰ النعمة التي أنعمها الله علىٰ والديه إلا من باب نيابته عنهما في هذا الشكر، وهو من جملة العمل الذي يؤديه الولد عن والديه[٣].

المسألة السادسة: أن الدعاء بصلاح الأولاد يعود نفعه للداعي نفسه، بدليل اللام في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [سورة الأحقاف:١٥]، وهي لام العلة، أي: أصلح في ذريتي لأجلي ومنفعتي

---

(١) [٧/ ٢٨١].

(٢) [ينظر: تفسير البغوي: ٧/ ٢٥٧].

(٣) [٢٦/ ٣٢].

...كأنه يقول: كما ابتدأتني بنعمتك وابتدأت والدي بنعمتك ومتعتهما بتوفيقي إلىٰ برهما، كمل إنعامك بإصلاح ذريتي فإن إصلاحهم لي[١].

المسألة السابعة: أن هذا الدعاء هو من أنفع الأدعية لصلاح الذرية، واستقامتهم علىٰ أمر الله تعالىٰ، فينبغي لكل أب وأم كثرة الدعاء به. عن مالك بن مغول، قال: شكىٰ أبو معشر ابنه إلىٰ طلحة بن مصرف، فقال: استعن عليه بهذه الآية ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ [سورة الأحقاف:١٥].

الموضع الخامس عشر: دعاء التابعين وأتباعهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحشر:١٠]، أثنىٰ الله تعالىٰ قبل هذه الآية علىٰ المهاجرين والأنصار ﷺ ثم أثنىٰ علىٰ أتباعهم إلىٰ يوم القيامة بهذا الدعاء المبارك.

وفيه مسائل عدة:

المسألة الأولىٰ: قال ابن أبي ليلىٰ: «اَلنَّاسُ ثَلَاثَةَ مَنَازِلَ: اَلْمُهَاجِرُونَ، وَاَلَّذِينَ تَبَوَّءُوا اَلدَّارَ وَالْإِيمَانَ، وَاَلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ. فَاجْتَهِدْ أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ اَلْمَنَازِلِ»[٢].

والمراد بدعاء اللاحق للسابق، والخلف للسلف، أنهم متبعون لهم، أو هو تعليم لهم بأن يدعوا لمن قبلهم، ويذكروهم بالخير[٣].

المسألة الثانية: أن هذا الدعاء المبارك تضمن الاستغفار لمن سبق بالإيمان، وتطهير القلب من الغل علىٰ المؤمنين، وحري بالمؤمن أن يكثر من الدعاء به؛ ليكون قلبه نظيفا علىٰ المؤمنين.

---

(١) [ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ٣٤].

(٢) [تفسير القرطبي: ١٨/ ٣١].

(٣) [تفسير القاسمي: ٩/ ١٨٩].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضا[١].

المسألة الثالثة: أن في هذا الدعاء المبارك تزكية للصحابة ﷺ، وسلامة لصدور المؤمنين وألسنتهم عليهم، وإغاظة لمبغضيهم من المبتدعة والمنافقين، وهذا من أصول أهل السنة والجماعة كما ذكر الإمام ابن تيمية في الواسطية وغيرها. قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم! ثم قرأت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [سورة الحشر: ١٠] الآية[٢].

الموضع السادس عشر: دعاء امرأة فرعون: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [سورة التحريم: ١١].

فهذا دعاء امرأة من النساء الكاملات؛ كما قَالَ الرَسُولُ ﷺ: «**كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ...**»[٣].

ولعلها حين دعت ببيت في الجنة لأنها تعيش في قصر فرعون، فلم ينسها ما هي فيه أن ما في الجنة خير مما هي فيه وإن كانت الأنهار تجري من تحته.

وفيه الدعاء بالنجاة من القوم الظالمين سواء من مشاركتهم في ظلمهم أو إقرارهم عليه؛ لأنها كانت تحت فرعون، وفيه الفرار من مصاحبة الظالمين ومجالستهم؛ لئلا يتخلق بالظلم

---

(١) [٨٥٢].

(٢) [رواه ابن أبي حاتم: ١٨٨٥٦].

(٣) [رواه البخاري: ٣٤١١، ومسلم: ٢٤٣١].

مثلهم، أو يعينهم عليه، أو يسكت عنهم، أو هي دعوة من تسليط الظلمة عليها فينالها شيء من ظلمهم.

وفي قولها: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [سورة التحريم:١١]، **قال العلماء**: «**اِخْتَارَتْ اَلْجَارَ قَبْلَ اَلدَّار**»[(١)].

(١) [تفسير ابن كثير: ٨/ ١٧٢].

المسألة الثالثة عشر : الاستغفار القرآني

أصل الغفر: الستر، قال الرّاغب: الغفر: إلباس ما يصونه عن الدّنس ...والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب. والاستغفار طلب ذلك بالمقال والفعال[١].

وقصر المغفرة علىٰ ستر الذنب خطأ نبه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب علىٰ الذنب فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه. وأما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن ومن عوقب علىٰ الذنب باطنا أو ظاهرا فلم يغفر له[٢].

ومن الغفر كان هذا الاسم العظيم لله تعالىٰ في القرآن بصيغة المبالغة (**غفور**) في أكثر من خمسين موضعا، وبأل التعريف (**الغفور**) في أحد عشر موضعا، وبصيغة فعال (**الغفار أو غفارا**) في أربعة مواضع: [ص: ٦٦، الزمر: ٥، غافر: ٤٢، نوح: ١٠]:

قوله : ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾ [سورة ص:٦٦].

قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾ [سورة الزمر:٥].

قوله ﷻ: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢﴾ [سورة غافر:٤٢].

قوله ﷻ: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠﴾ [سورة نوح:١٠].

قال أبو حامد الغزالي: الغفار مبالغة في المغفرة بالإضافة إلىٰ مغفرة متكررة مرة بعد أخرىٰ، فالفعال ينبئ عن كثرة الفعل، والفعول ينبئ عن جودته وكماله وشموله، فهو غفور بمعنىٰ أنه تام المغفرة والغفران، كاملها حتىٰ يبلغ أقصىٰ درجات المغفرة[٣].

---

(١) [المفردات: ٦٠٩].

(٢) [الفتاوىٰ: ١٠/ ٣١٧].

(٣) [المقصد الأسنىٰ: ١٠٥].

والمغفرة هبة من الله تعالىٰ لعباده، قال ابن القيم: المغفرة فضل من الله، وإلا فلو أخذك بمحض حقه، كان عادلا محمودا، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك[١].

اقتران اسم الغفور ومشتقاته بغيره:

«الغفور»: جاء مقرونا بالرحيم في نحو خمسين موضعا، ومطلقا في قوله: ﴿وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سورة سبأ:١٥]، ومقرونا بالشكور في موضعين: [فاطر:٣٠، والشورىٰ: ٢٣]:

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة فاطر:٣٠].

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الشورى:٢٣].

ومقرونا بالحليم في أربعة مواضع: [البقرة: ٢٢٥، و٢٣٥، وآل عمران: ١٥٥، والمائدة: ١٠١]:

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [سورة البقرة:٢٢٥].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [سورة البقرة:٢٣٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [سورة آل عمران:١٥٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة المائدة:١٠١].

---

(١) [المدارج: ١/ ٢٢٣].

وبالعزيز ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة فاطر:٢٨].

وبالودود ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [سورة البروج:١٤]، وبالعفو في موضعين [النساء: ٤٣، و٩٩].

«الغفار»: ثلاثة مواضع [ص: ٦٦، والزمر:٥ ، وغافر:٤٢]:

قوله : ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة ص:٦٦].

قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ [سورة الزمر:٥].

قوله ﷻ: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة غافر:٤٢].

«الغافر»: جاء مضافا في قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [سورة غافر:٣].

«ذو المغفرة»: جاء في موضعين: [الرعد: ٦، وفصلت: ٤٣]:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الرعد:٦].

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة فصلت:٤٣].

و «واسع المغفرة»: في: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [سورة النجم:٣٢].

و«أهل المغفرة»: في قوله ﷻ: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة المدثر:٥٦].

فظهر بهذا أنه غالبا ما يقترن في القرآن اسم الغفور بالرحيم، وصفة المغفرة بالرحمة؛ لأن مغفرة الله تعالىٰ لعباده سببها رحمته بهم سبحانه، وهو أرحم من الوالدة بولدها.

والله تعالىٰ قد أخبرنا بأنه غفور، وأمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يخبرنا بذلك لنستجلب مغفرته بالاستغفار ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الحجر:٤٩-٥٠]، وفي هذه الآية غاية النصح للعباد؛ لأنها أخبرت عن رحمة الله تعالىٰ

ومغفرته، وقد يظن بعض الناس أنه ليس محتاجا إلىٰ المغفرة والرحمة فقرن في الآية الإخبار بأن عذابه سبحانه أليم، فلا مفر حينئذ من طلب مغفرته ورحمته.

ومهما بلغت ذنوب العباد فهي مغفورة بالتوبة والاستغفار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [سورة الزمر:٥٣]، ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾ [سورة البروج:١٤]، فهو ﷻ يغفر ويود أن يغفر، ويتودد إلىٰ أوليائه بالمغفرة.

وكل ما سبق يدل علىٰ أهمية استجلاب مغفرة الله تعالىٰ، واستمطار رحمته سبحانه بالاستغفار، والظاهر لي أن الاستغفار والتسبيح هما أكثر أنواع الذكر وروادا في القرآن، وقد جاء الاستغفار في مقامات كثيرة، وبأساليب متنوعة، ومن ذلك:

أولاً: استغفار الملائكة للمؤمنين:

جاء ذلك في آيتين، هما قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ [سورة غافر:٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [سورة الشورى:٥].

فما قيمة الإنسان بلا إيمان؟! وحملة العرش ومن حوله يستغفرون للمؤمنين!!

والله إن هذه الآية يجب أن يتوقف عندها المؤمن مليًا ليحمد الله تعالىٰ أن نظمه في سلك المؤمنين.

وهذا أيضًا يدل علىٰ محبة الملائكة للمؤمنين، وأن المؤمنين في الأرض وفي السماء بعضهم أولياء بعض، وهو يحتم علىٰ المؤمن محبة الملائكة عليهم السلام.

قال مطرف بن عبد الله رحمه الله تعالىٰ: أنصح عباد الله للمؤمنين هم الملائكة، وأغش الخلق للمؤمنين هم الشياطين[1].

---

(١) [تفسير البغوي: ٧/ ١٤١].

وآية غافر تُفسِّر آية الشورىٰ، وتخصص استغفار الملائكة لأهل الأرض بالمؤمنين منهم. ويزيد ذلك إيضاحًا قوله تعالىٰ عنهم أنهم يقولون في استغفارهم للمؤمنين: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [سورة غافر:٧]، لأن ذلك يدل دلالة واضحة علىٰ عدم استغفارهم للكفار(١).

الثاني: استغفار الرسل للمؤمنين، وهو علىٰ نوعين:

النوع الأول: عام: ومنه دعوة نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ٢٨﴾ [سورة نوح:٢٨].

وكذلك دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [سورة إبراهيم:٤١].

ودعوتهما عليهما السلام يدخل فيها كل مؤمن ومؤمنة إلىٰ أن تقوم الساعة.

النوع الثاني: خاص: ومنه استغفار يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ [سورة يوسف:٩٢].

قال القرطبي: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [سورة يوسف:٩٢] ؛ مستقبل فيه معنىٰ الدعاء، سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم(٢).

وقال ابن عاشور: وأعقب ذلك بأن أعلمهم بأن الله يغفر لهم في تلك الساعة؛ لأنها ساعة توبة، فالذنب مغفور لإخبار الله في شرائعه السالفة دون احتياج إلىٰ وحي سوىٰ أن الوحي لمعرفة إخلاص توبتهم(٣).

---

(١) [أضواء البيان: ٧/ ٤٠].

(٢) [تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٨].

(٣) [التحرير والتنوير ١٣/ ٥٠].

ومنه أيضاً: استغفار يعقوب عليه السلام لبنيه ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة يوسف:٩٨]، فوعدهم بالاستغفار لهم، والأنبياء عليهم السلام يفون بوعودهم.

قال عطاء الخراساني رحمه الله تعالىٰ: طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ، ألم تر قول يوسف: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [سورة يوسف:٩٢]، وقال يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [سورة يوسف:٩٨] (١).

ومنه أيضاً: استغفار الكليم:

لأخيه هارون عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [سورة الأعراف:١٥١].

وكذلك استغفاره عليه السلام لقومه لمَّا عبدوا العجل ثم لمَّا قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [سورة النساء:١٥٣]، فقال عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [سورة الأعراف:١٥٥].

ومنه أيضاً: استغفار عيسىٰ عليه السلام لقومه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة المائدة:١١٨]، ويحتمل أن هذه الآية لا تتضمن الاستغفار لهم، وإنما هي تفويض أمرهم إلىٰ الله تعالىٰ.

قال ابن عاشور: فوض أمرهم إلىٰ الله فهو أعلم بما يجازيهم به؛ لأن المقام مقام إمساك عن إبداء رغبة لشدة هول ذلك اليوم، وغاية ما عرض به عيسىٰ أنه جوز المغفرة لهم رحمة منه بهم (٢).

والذي يظهر لي أنها صالحة للتفويض والاستغفار لهم، ويكون استغفارا بأسلوب فيه تأدب مع الله تعالىٰ، وتعظيم له، وإعظام لذنبهم.

---

(١) [تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٨].

(٢) [٧/ ١١٧].

أما ما يدل علىٰ أنها تصلح تفويضا دون الاستغفار لهم فحديث ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... ثُمَّ يُؤْخَذُ بِرِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِي ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة المائدة:١١٧-١١٨]، قَالَ: مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الفَرَبْرِيُّ، ذُكِرَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ، عَنْ قَبِيصَةَ، قَالَ: «هُمُ المُرْتَدُّونَ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ فَقَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ ﷺ»(١).

وأما ما يدل علىٰ أنها صالحة لأن تكون استغفارا لهم حديث أَبِي ذَرٍّ ﷺ ، قَالَ: صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّىٰ أَصْبَحَ، يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة المائدة:١١٨]، فَلَمَّا أَصْبَحَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا زِلْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّىٰ أَصْبَحْتَ، تَرْكَعُ بِهَا وَتَسْجُدُ بِهَا قَالَ: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»(٢).

الثالث: استغفار النبي عليه الصلاة والسلام لأمته:

وهو علىٰ نوعين:

١- استغفاره للمؤمنين منهم، وقد أمره الله تعالىٰ بذلك في آيات عدة كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [سورة آل عمران:١٥٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [سورة النساء:٦٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ [سورة النور:٦٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ

---

(١) [رواه البخاري: ٣٤٤٧، ومسلم: ٢٨٦٠].

(٢) [رواه أحمد: ٢١٣٢٨].

لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [سورة محمد:١٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ﴾ [سورة الممتحنة:١٢]، فتضمنت هذه الآيات أمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ أن يستغفر لأصحابه ﷺ، وللنساء، ولعموم المؤمنين والمؤمنات.

٢- استغفاره عليه الصلاة والسلام للمنافقين، ولا ينفعهم ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾ [سورة التوبة:٨٠]، وقال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾ [سورة الفتح:١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٦﴾ [سورة المنافقون:٥-٦].

الرابع: استغفار المؤمنين للمؤمنين:

وفيه ثناء الله تعالىٰ علىٰ من يفعل ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [سورة الحشر:١٠].

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضا[١].

---

(١) [تفسير السعدي: ٨٥٢].

والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات له فضيلة عظيمة ينبغي للمؤمن أن يحرص عليها، وهي ما جاء في حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً» (١).

عناية الرسل بالاستغفار:

كل الرسل أمروا الناس بالاستغفار، وما ذاك إلا لمكانته عند الله تعالىٰ، وأهميته للمكلفين في محو ذنوبهم، وتكفير سيئاتهم، ورفع درجاتهم، ونيل مغفرة الله تعالىٰ ورحمته.

فأمر به نوح عليه السلام فقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [سورة نوح:١٠].

وأمر به هود عليه السلام فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [سورة هود:٥٢].

وأمر به شعيب عليه السلام فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة هود:٩٠].

وأمر به نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [سورة هود:٣].

والأمر بالاستغفار كثير في القرآن:

سواء قرن بعبادة أخرىٰ نحو قرنه بالصبر والتسبيح في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة غافر:٥٥].

أو خلال مناسك الحج في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [سورة البقرة:١٩٩].

---

(١) [رواه الطبراني في مسند الشاميين: ٣/ ٢٣٤، قال الهيثمي: ١٠/ ٢١٠: وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ٦٠٢٦].

أو بعد ذكر الصدقة كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة المزمل:٢٠].

والثناء علىٰ المستغفرين جاء في مواضع:

كالثناء علىٰ من يبادر بالاستغفار بعد الوقوع في المعصية فمنه قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [سورة آل عمران:١٣٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [سورة النساء:٦٤].

وبيان دفع العذاب عن المستغفرين ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأنفال:٣٣].

والثناء علىٰ المستغفرين بالأسحار ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الذاريات:١٨].

ثمرات الاستغفار كما جاءت في القرآن:

للاستغفار ثمرات كثيرة جدا جاءت في القرآن، تنتظم في جمع خيري الدنيا والآخرة، ودفع السوء عن المستغفر في الدنيا والآخرة:

١- أما ما يتعلق بالآخرة فقبول التوبة، ومغفرة الذنب، ودخول الجنة قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة آل عمران:١٣٥-١٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [سورة النساء:٦٤].

والله تعالىٰ يذكر أهل النار بأن المؤمنين كانوا يستغفرونه في الدنيا، وأن الكفار كانوا يسخرون منهم، فجزاهم بإيمانهم واستغفارهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم

مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة المؤمنون:١٠٩-١١١].

٢- أما ما يتعلق بالدنيا:

فدفع العقوبات الربانية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأنفال:٣٣].

وحصول الرزق والقوة في كل شيء: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [سورة هود:٥٢]، ومن الرزق: الإمداد بالأموال والبنين والبركة في الزرع والأنهار حتىٰ تصبح الأرض جنات ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة نوح:١٠-١٢].

وينتظم ذلك في العيش الحسن الذي يورث الفرح والسعادة والأمن والطمأنينة وراحة البال؛ فالمعايش هي أكثر ما يجلب الهموم والغموم للناس ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة هود:٣].

ويجمع خيري الدنيا والآخرة في الاستغفار قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [سورة آل عمران:١٤٧-١٤٨].

صيغ الاستغفار القرآني:

وأحسب أن هذا هو لب الموضوع وثمرته، وينبغي لقارئ المقالة أن يوليه عنايته بأن يحفظ هذه الصيغ القرآنية للاستغفار فيلهج بها لسانه ويعيها قلبه، ولا سيما أن كثيرا منها هي صيغ الرسل التي استغفروا الله تعالىٰ بها، وهم أعلم الخلق بالله تعالىٰ:

١- استغفار آدم وحواء عليهما السلام ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأعراف:٢٣]، وهذا من أعظم أنواع الاستغفار؛ لأن الله تعالىٰ تاب علىٰ آدم وحواء به، وهي الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه أو هي منها في قول جماعة كبيرة من

السلف كابن عباس، وأبيّ بن كعب، وابن زيد، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء الخراساني، وعبيد بن عمير[١]. ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [سورة البقرة:٣٧].

وهو قريب من الاستغفار الذي علمه النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر رضي الله عنه حين قال: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي، قَالَ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[٢].

فينبغي للمؤمن أن يكثر من هاتين الصيغتين للاستغفار.

٢- استغفار نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [سورة هود:٤٧]، وأيضاً ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ﴾ [سورة نوح:٢٨].

٣- استغفار الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [سورة إبراهيم:٤١]، وأيضاً ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥﴾ [سورة الممتحنة:٥].

٤- استغفار الكليم عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [سورة الأعراف:١٥١]، وأيضاً ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [سورة الأعراف:١٥٥]، وأيضاً ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ [سورة القصص:١٦].

٥- استغفار سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ [سورة ص:٣٥].

---

(١) [زاد المسير:١/ ٥٧].

(٢) [رواه البخاري: ٨٣٤، ومسلم: ٢٧٠٥].

٦- استغفار يونس عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [سورة الأنبياء:٨٧].

هذا الذي وقفت عليه من صيغ استغفار الأنبياء عليهم السلام في القرآن، وهي من أعظم صيغ الاستغفار وأنفعها، ومن صيغ الاستغفار القرآني أيضـًا:

٧- ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [سورة البقرة:٢٨٥]، وأيضـًا ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ [سورة البقرة:٢٨٦].

٨- ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [سورة آل عمران:١٦].

٩- ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ [سورة آل عمران:١٤٧].

١٠- ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [سورة آل عمران:١٩٣].

١١- ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [سورة الأعراف:١٤٩]، وفي قراءة أخرىٰ (**ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا**) وهي أبلغ في الدعاء والاستغفار، فيدعو الداعي بها.

١٢- ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾ [سورة المؤمنون:١٠٩]، وهذه قد بكَّت الله بها الكافرين وأثنىٰ علىٰ المؤمنين أنهم كانوا يقولونها في الدنيا فلنكثر منها.

١٣- ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ [سورة المؤمنون:١١٨]، وهو دعاء أمر الله تعالىٰ به.

١٤- ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [سورة الحشر:١٠].

١٥- ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [سورة التحريم:٨]، وهذا دعاء المؤمنين علىٰ الصراط حين أطفأ الله تعالىٰ نور المنافقين، وهو يتضمن الاستغفار، ويدعىٰ به في الدنيا، نسأل الله تعالىٰ أن يتمم لنا نورنا وأن يغفر لنا.

والذي أراه أنه ينبغي للمؤمن أن يحفظ هذه الصيغ القرآنية في الاستغفار، وأن يستغفر الله تعالىٰ بها، ويختار في كل مرة منها ما يناسب حاله ومسألته.

وينبغي أن نتفطن إلىٰ أن الاستغفار الكامل الذي يتحقق به مراد العبد في الدنيا والآخرة هو ما واطأ القلب فيه اللسان، وصدقته الأفعال، وحري بمن لهج لسانه بكثرة الاستغفار أن يواطيء قلبه لسانه، وأن يصدق ذلك بأفعاله.. جعلنا الله تعالىٰ من المستغفرين.

من صيغ الاستغفار في السنة:

وهذا العنوان ليس علىٰ شرط المقال لكن لأهمية حفظ صيغ الاستغفار المأثورة أذكر ما وقفت عليه في السنة ليتمم الموضوع:

١- سيد الاستغفار: قال النَّبِيِّ ﷺ: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ » قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» (١).

٢- أستغفر الله وأتوب إليه: قَالَ النبي ﷺ: «وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» (٢).

٣- أستغفر الله، (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا) (٣).

٤- ما جاء في حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ:«سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» وفي رواية: «سُبْحَانَكَ رَبِّي وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي») (٤).

---

(١) [رواه البخاري:٦٣٠٦].

(٢) [رواه البخاري: ٦٣٠٧].

(٣) [رواه مسلم: ٥٩١].

(٤) [رواه مسلم: ٤٨٤].

٥- قال ﷺ: (مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ) [١].

٦- عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: (إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»)[٢].

٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ، وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ») [٣].

٨- رب اغفر لي، بين السجدتين[٤]. وهو من دعاء من تعار من الليل[٥]، ودعاء دخول المسجد: «رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ»[٦]، ومن دعاء النبي عليه الصلاة والسلام قبل موته: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ»[٧]، وعلم عليه الصلاة والسلام الأعرابي أن يقول: (اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي) [٨]، وكَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ وَضَعْتُ جَنْبِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي... » [٩].

---

(١) [رواه أبو داود: ١٥١٧].

(٢) [رواه أبو داود: ١٥١٦].

(٣) [رواه مسلم ٤٨٣].

(٤) [رواه أبو داود: ٨٧٤].

(٥) [رواه أبو داود: ٥٠٦٠].

(٦) [رواه الترمذي: ٣١٤].

(٧) [رواه البخاري: ٤٤٤٠].

(٨) [رواه مسلم: ٢٦٩٦].

(٩) [رواه أبو داود: ٥٠٥٤].

٩- قال ﷺ: (إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُكَ») [١]. وفي قصة الرجل الذي كلما عاد للذنب قال: رب اغفر لي ذنبي، فيغفر الله تعالىٰ له[٢].

١٠- في دعاء الاستفتاح من صلاة الليل: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[٣].

١١- آخِرَ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالسَّلَامِ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[٤].

١٢- كفارة المجلس: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[٥].

١٣- عَنِ أَبِي مُوسَىٰ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي

---

(١) [رواه الترمذي وقال حسن صحيح: ٣٤٤٦].

(٢) [رواه مسلم: ٢٧٥٨].

(٣) [رواه مسلم: ٧٧١].

(٤) [رواه الترمذي: ٣٤٢١].

(٥) [رواه أبو داود: ٤٨٥٩].

وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١).

(١) [رواه البخاري: ٢٧٥٨].

المسألة الرابعة عشر : التسبيح القرآني

التسبيح: هو التنزيه؛ وقد جاء في حديث حذيفة: (**إذا مر بآية تنزيه سبح**)، وورد تفسيره بالتنزيه في حديث متصل ضعيف عند الحاكم وغيره، وحديث آخر مرسل، وجاء عن ابن عباس وغيره من السلف أنه التنزيه. والمفسرون كذلك ذكروا أن التسبيح هو التنزيه[١].

ولكنه ليس مجرد تنزيه أو نفي محض بل فيه إثبات الكمال، فهو تنزيه يتضمن التعظيم، ودليل تضمنه التعظيم قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** ﷻ»[٢] والوارد في الركوع تسبيح.

قال السمعاني رحمه الله تعالى: سبحان: تنزيه الله من كل سوء، وحقيقته تعظيم الله بوصف المبالغة، ووصفه بالبراءة من كل نقص[٣].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: والأمر بتسبيحه يقتضي أيضاً تنزيهه عن كل عيب وسوء، وإثبات صفات الكمال له؛ فإن التسبيح يقتضي التنزيه والتعظيم، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده[٤].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: والتسبيح ثناء عليه سبحانه يتضمن التعظيم والتنزيه[٥].

---

(١) [ينظر: تفسير الطبري: ١/ ٤٧٤، وتفسير ابن عطية: ٣/ ٤٧٢، وزاد المسير: ١/ ٥٣، وتفسير القرطبي: ١/ ٢٧٦، وتفسير السعدي: ٤٨، والتحرير والتنوير: ١/ ٤٠٥].

(٢) [رواه مسلم: ١/ ٣٤٨].

(٣) [تفسير السمعاني: ٣/ ٢١٢].

(٤) [الفتاوى: ١٦/ ١٢٥].

(٥) [المنار المنيف: ٣٦].

وقد جاء التسبيح في القرآن بمختلف تصاريفه وصيغه في سبعة وثمانين موضعا، وافتتحت به سبع سور سميت (**المسبحات**) وهي: الإسراء والحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والأعلىٰ، وختمت به سور الحجر والطور والواقعة والحاقة.

والفعل «سبح» قد يتعدىٰ بنفسه بدون اللام كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الأحزاب:٤٢]، وقد يتعدىٰ باللام كقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [سورة الحشر:١]، وعلىٰ هذا فسبحه وسبح له لغتان كنصحه ونصح له، وشكره وشكر له[(١)].

ومن تصاريف التسبيح فعل الماضي (**سبَّح**) وفعل المضارع (**يُسبِّح**) قال بعض أهل العلم: إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرىٰ ليبين أن ذلك التسبيح لله هو شأن أهل السماوات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل[(٢)].

ومن حكمة إرسال الرسول أن نسبح الله تعالىٰ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الفتح:٨-٩]، وقد أمر به في الشدائد ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة ق:٣٩]، وآيات أخرىٰ غيرها.

فأمره له بالتسبيح بعد أمره له بالصبر علىٰ أذىٰ الكفار فيه دليل علىٰ أن التسبيح يعينه الله به علىٰ الصبر المأمور به[(٣)].

التسبيح اعتقاد وقول وعمل:

ودليل ذلك أن الصلاة تسمىٰ تسبيحًا، وهي تشمل اعتقاد القلب وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح ، قالت عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَبَّحَ سُبْحَةَ الضُّحَىٰ، وَإِنِّي**

---

(١) [أضواء البيان: ٧/ ٥٤٠].

(٢) [أضواء البيان: ٧/ ٥٤١].

(٣) [أضواء البيان: ٧/ ٤٣٢].

لَأُسَبِّحُهَا» [رواه البخاري: ١١٧٧] وقالت أم هانئ رضي الله عنها: «قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ غُسْلِهِ، فَسَتَرَتْ عَلَيْهِ فَاطِمَةُ ثُمَّ أَخَذَ ثَوْبَهُ فَالْتَحَفَ بِهِ، ثُمَّ صَلَّىٰ ثَمَانَ رَكَعَاتٍ سُبْحَةَ الضُّحَىٰ»[١].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالىٰ: تسبيح الله تعالىٰ قد يكون بالقلب -بالعقيدة- وقد يكون باللسان، وقد يكون بهما جميعًا، والمقصود أن يسبح بهما جميعًا بقلبه لافظًا بلسانه[٢].

وقال ابن عاشور رحمه الله تعالىٰ: والتسبيح قول أو مجموع قول مع عمل يدل علىٰ تعظيم الله تعالىٰ وتنزيهه؛ ولذلك سمي ذكر الله تسبيحا، والصلاة سبحة ويطلق التسبيح علىٰ قول سبحان الله؛ لأن ذلك القول من التنزيه[٣].

إطلاق التسبيح في القرآن:

يطلق التسبيح في القرآن الكريم ويراد به ستة أشياء:

الأول: يطلق علىٰ التنزيه مع التعظيم، وهو أكثر ما ورد في القرآن، وهو المراد عند الإطلاق، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة الصافات:١٥٩].

الثاني: يطلق علىٰ الصلاة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [سورة طه:١٣٠].

يفسرها قول النبي عليه الصلاة والسلام «...إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا» ثُمَّ قَالَ: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»[٤] وفي رواية مسلم أن قارئها راوي الحديث جرير بن عبد الله الصحابي رضي الله عنه.

---

(١) [رواه مسلم: ٣٣٦].

(٢) [تفسير جزء عم:١٥٨].

(٣) [١/ ٤٠٥].

(٤) [رواه البخاري: ٥٧٣، ومسلم: ٦٣٣].

الثالث: يطلق علىٰ الدعاء، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [سورة يونس:١٠]، ومنه أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [سورة الأنبياء:٨٧].

يفسره قول النبي ﷺ: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ**»[(١)].

الرابع: يطلق علىٰ عموم الذكر، ومنه قول الملائكة عليهم السلام: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾ [سورة البقرة:٣٠]. **قال الطبري رحمه الله تعالىٰ**: يعني: إنا نعظمك بالحمد لك والشكر...وكل ذكر لله عند العرب فتسبيح وصلاة. يقول الرجل منهم: قضيت سبحتي من الذكر والصلاة. وقد قيل: إن التسبيح صلاة الملائكة[(٢)].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: ويراد بالتسبيح جنس ذكر الله تعالىٰ، يقال: فلان يُسبِّح، إذا كان يذكر الله. ويدخل في ذلك التهليل والتحميد، ومنه سُمِّيت «**السبَّاحة**» للإصبع التي يشير بها، وإن كان يشير بها في التوحيد[(٣)].

الخامس: يطلق علىٰ عموم العبادة، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [سورة الصافات:١٤٣-١٤٤] عن وهب بن منبه: قال: من العابدين[(٤)].

السادس: يطلق علىٰ الاستثناء، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨﴾ [سورة القلم:١٧-١٨]، والمراد به قول: إن شاء الله، لكن دلت الآيات علىٰ أنهم كانوا يسبحون

---

(١) [رواه الترمذي: ٣٥٠٥].

(٢) [١/ ٤٧٢].

(٣) [جامع المسائل، ت: عزير شمس: ٣/ ٢٩٢].

(٤) [تفسير عبد الرزاق: ٢/ ١٠٣].

مكانها ﴿قَالَ أَوَسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة القلم:٢٨]، قال السدي: كان استثناؤهم في ذلك الزمان التسبيح[١]. فيقولون: سبحان الله، بدل: إن شاء الله، فقوله لولا تسبحون، أي: تستثنون.

وفي الاستثناء ذكر الله تعالىٰ وتعظيمه، وأن إرادة البشر تحت مشيئته سبحانه، وقد سمي الاستثناء في القرآن ذكرا في قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الكهف:٢٣-٢٤].

اقتران التسبيح بغيره:

جاء التسبيح مفردا في القرآن في ستة وثلاثين موضعا، منها: بصيغة الاسم الظاهر (سبحان الله أو سبحان الذي أو سبحان ربك ونحو ذلك) في خمسة عشر موضعا. وبضمير الغيبة (سبحانه) في ثلاثة عشر موضعا، وبضمير الخطاب (سبحانك) في ثمانية مواضع.

وأما اقتران التسبيح بغيره من الذكر فعلىٰ النحو الآتي:

الأول: اقترانه بالحمد، وجاء في خمسة عشر موضعا، منها: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [سورة البقرة:٣٠]، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [سورة الحجر:٩٨]، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الفرقان:٥٨]، فالتسبيح يتضمن نفي النقائص والعيوب، والتحميد يتضمن إثبات صفات الكمال التي يُحمَد عليها[٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل علىٰ إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن[٣].

---

(١) [تفسير ابن أبي حاتم: ١٠/ ٢٣٦٦].

(٢) [جامع المسائل لابن تيمية: ٣/ ٢٧٨].

(٣) [٧/ ٤٦].

الثاني: اقترانه بالتهليل، وجاء في موضعين:

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [سورة التوبة:٣١].

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [سورة الأنبياء:٨٧].

الثالث: اقترانه بالاستغفار، وجاء في أربعة مواضع:

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ [سورة غافر:٧].

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [سورة غافر:٥٥].

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [سورة الشورى:٥].

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [سورة النصر:٣].

المسبحون في القرآن:

١- **تسبيح الله تعالىٰ نفسه**، وهو كثير في القرآن قارب ثلاثين موضعًا، ومنه قول الله تعالىٰ:

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ [سورة الصافات:١٨٠].

٢- **تسبيح الملائكة** عليهم السلام، وجاء في نحو عشر آيات، منها قول الله تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [سورة الأنبياء:٢٠]، ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ٣٨﴾ [سورة فصلت:٣٨]، وقد ذُكر بأن تسبيحهم كالنَفَس لنا لا يشغلهم عن مهماتهم كما لا يشغلنا التنفس عنها[(١)].

٣- **تسبيح الرسل** عليهم السلام:

قال يونس عليه السلام: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [سورة الأنبياء:٨٧].

وقال موسىٰ عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ [سورة الأعراف:١٤٣].

وعن داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾ [سورة ص:١٨].

وقال عيسىٰ عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [سورة المائدة:١١٦].

---

(١) [تفسير الطبري: ١٨/ ٤٢٣].

وأمر سبحانه زكريا عليه السلام بالتسبيح: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة آل عمران:٤١]، فأمر زكريا عليه السلام قومه بالتسبيح: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [سورة مريم:١١]، وأمر سبحانه به نبينا محمدا ﷺ في آيات كثيرة: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الواقعة:٧٤]، وقال محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة يوسف:١٠٨]، وكان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم**» تأولا للقرآن في قوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [سورة النصر:٣].

٤- **تسبيح المؤمنين**: وقد جاء في آيات عدة، منها: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة الإسراء:١٠٨].

٥- **تسبيح الجبال والطير**: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ﴾ [سورة الأنبياء:٧٩]، ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ﴾ [سورة النور:٤١].

٦- **تسبيح الرعد**: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الرعد:١٣].

٧- **تسبيح كل الموجودات**: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [سورة الحشر:١]، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الإسراء:٤٤]، وهذه الآية تدل علىٰ أنه تسبيح حقيقي علىٰ كيفية لا يعرفها البشر فلا يفقهون تسبيح هذه المخلوقات، وقد أخطأ من تأول تسبيحها لمعنىٰ غير التسبيح المعهود في اللغة.

٨- **تسبيح أهل الجنة**، فقد أخبر الله تعالىٰ عنهم بقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [سورة يونس:١٠]، فهنيئًا لمن أكثر من التسبيح في الدنيا ووجد لذة فيه، وفرحًا به، فإنه حري أن يتلذذ بالتسبيح في الجنة كما تلذذ به في الدنيا. وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن أهل الجنة يلهمون التسبيح، وأنهم يسبحون الله تعالىٰ بكرة وعشيا.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: أهل الجنة يتنعمون بالنظر إلىٰ الله ويتنعمون بذكره وتسبيحه ويتنعمون بقراءة القرآن...ويتنعمون بمخاطبتهم لربهم ومناجاته، وإن كانت هذه الأمور في الدنيا أعمالا يترتب عليها الثواب؛ فهي في الآخرة أعمال يتنعم بها صاحبها أعظم من أكله وشربه ونكاحه(١).

فما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين بحيث إن أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه، فاعتاضوا عن السؤال بالثناء علىٰ ربهم، فألهموا إلىٰ التزام التسبيح؛ لأنه أدل لفظ علىٰ التمجيد والتنزيه، فهو جامع للعبارة عن الكمالات(٢).

حكم التسبيح:

جاء الأمر بالتسبيح في عدد من آيات القرآن نحو قول الله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الفرقان:٥٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة الحجر:٩٨]، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الواقعة:٧٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [سورة الأعلى:١].

والأمر بالتسبيح إما أن يحمل علىٰ الوجوب أو الندب، وقد دلت السنة النبوية علىٰ كلا الأمرين:

١- فأمر النبي ﷺ بالتسبيح في الصلاة أمر وجوب علىٰ الصحيح، وذلك في حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الواقعة:٧٤]، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [سورة الأعلى:١]، قَالَ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»)(٣).

---

(١) [الفتاوىٰ: ٤/ ٣٣٠].

(٢) [التحرير والتنوير: ١١/ ١٠٣].

(٣) [رواه أبو داود: ٨٦٩، وصححه ابن حبان: ١٨٩٨].

٢- وندب عليه الصلاة والسلام إلىٰ التسبيح المطلق، والتسبيح المقيد بأدبار الصلوات، أو بالصباح والمساء، وبين ما فيه من الثواب، ويأتي عرض ذلك في محله إن شاء الله تعالىٰ.

هذا في تسبيح الله تعالىٰ، وأما تسبيح غيره سبحانه فالظاهر عدم جوازه:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ: وأصناف العبادات: الصلاة بأجزائها مجتمعة وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها من السجود والركوع والتسبيح والدعاء والقراءة والقيام لا يصلح إلا لله وحده[١].

وقال العز بن عبد السلام رحمه الله تعالىٰ: التسبيح: التنزيه من السوء علىٰ وجه التعظيم، فلا يُسبَّح غير الله تعالىٰ؛ لأنه قد صار مستعملاً في أعلىٰ مراتب التعظيم التي لا يستحقها سواه[٢].

وقال الماوردي رحمه الله تعالىٰ: ولا يجوز أن يسبَّحَ غير الله وإن كان منزهـًا؛ لأنه صار علَمـًا في الدين علىٰ أعلىٰ مراتب التعظيم الَّتي لا يستحقها إلا اللهُ تعالىٰ[٣].

وقال السمعاني رحمه الله تعالىٰ: وكلمة سبحان؛ كلمة ممتنعة لا يجوز أن يوصف بها غير الله؛ لأن المبالغة في التعظيم لا تليق لغير الله[٤].

وقال ابن عاشور رحمه الله تعالىٰ: والتسبيح: التنزيه عن النقائص، وهو من الأسماء التي لا تضاف لغير اسم الله تعالىٰ، وكذلك الأفعال المشتقة منه لا ترفع ولا تنصب علىٰ المفعولية إلا ما هو اسم الله، وكذلك أسماء المصدر منه نحو: سبحان الله[٥].

---

(١) [الفتاوىٰ: ١/ ٧٤].

(٢) [تفسيره: ١/ ١١٥].

(٣) [تفسيره: ١/ ٩٧].

(٤) [تفسيره: ٣/ ٢١٢].

(٥) [٣٠/ ٢٧٣].

وقد جاء عن علي وابن عباس ﷺ أن (سبحان الله) كلمة رضيها الله تعالىٰ لنفسه[١]. وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: سبحان الله اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه[٢].

صيغ التسبيح القرآني:

١- ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء:٩٣]، ﴿سُبۡحَانَ رَبِّنَآ﴾ [سورة الإسراء:١٠٨].

٢- ﴿سُبۡحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٣﴾ [سورة الطور:٤٣].

٣- ﴿سُبۡحَانَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨﴾ [سورة القصص:٦٨].

٤- ﴿سُبۡحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾ [سورة المؤمنون:٩١].

٥- ﴿سُبۡحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ [سورة الصافات:١٨٠].

٦- ﴿فَسُبۡحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [سورة الأنبياء:٢٢].

٧- ﴿سُبۡحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء:١].

٨- ﴿فَسُبۡحَانَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [سورة يس:٨٣].

٩- ﴿سُبۡحَانَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [سورة يس:٣٦].

١٠- ﴿سُبۡحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣﴾ [سورة الزخرف:١٣]، وهو سنة في الركوب.

١١- ﴿سُبۡحَانَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢﴾ [سورة الزخرف:٨٢].

ويسن لمن مر بهذه الصيغ في التسبيح أو أي آية فيها تسبيح خارج الصلاة أو في صلاة النافلة أن يسبح الله تعالىٰ.

والملاحظ أن صيغ التسبيح القرآني حسب سياقاتها تنتظم في أمور، استخرجت منها بالاستقراء ما يلي:

---

(١) [ينظر: الدر المنثور: ١/ ٢٦٩].

(٢) [رواه ابن حاتم: ١/ ٨١].

الأول: إثبات وحدانية الله تعالىٰ، وتنزيهه عن افتراءات المشركين من زعم الصاحبة والولد والشريك له سبحانه، وهو أكثر ما جاء التسبيح فيه، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة المؤمنون:٩١]، وذلك أنه ﷻ مستغن عن خلقه، فهو ذو العزة ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [سورة الصافات:١٨٠].

الثاني: إثبات خلقه سبحانه، وأنه لا خالق غيره، وهذا يستوجب تسبيحه شكرا له علىٰ نعمه التي أنعم بها علىٰ عباده، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة يس:٣٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الزخرف:١٢-١٣].

الثالث: إثبات حكمة الله تعالىٰ في أفعاله، وتنزيه سبحانه عن العبث، ومن ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [سورة آل عمران:١٩١]، وأن أفعاله لا تكون علىٰ أمزجة خلقه كما دل عليه الأمر بالتسبيح في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الإسراء:٩٠-٩٣].

الرابع: إثبات عدله ﷻ، وتنزيهه عن الظلم، ومنه قول يونس عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الأنبياء:٨٧]، **قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ**:

هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه والمقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنب يقول: أنت مقدس ومنزه عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنب؛ بل أنا الظالم الذي ظلمت نفسي[١].

الخامس: إثبات قدرة الله تعالىٰ ونفي العجز عنه سبحانه ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الزمر:٦٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة يس:٨٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [سورة الإسراء:١].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام متضمن ما يجب تنزيه الله عنه يؤذن بأن خبرا عجيبا يستقبله السامعون دالا علىٰ عظيم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة المتحدث عنه[٢].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: ينزه تعالىٰ نفسه المقدسة ويعظمها؛ لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي من جملتها أن ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء:١] [٣].

السادس: إثبات صدق الله تعالىٰ في قوله ووعده، وتنزيهه عن الكذب والإخلاف، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة الإسراء:١٠٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ [سورة النحل:١].

السابع: تنزيه الله تعالىٰ عن نسبة الشر إليه ﷻ، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [سورة النور:١٦].

---

(١) [الفتاوىٰ:١٠/ ٢٤٨].

(٢) [١٥/ ٩].

(٣) [تفسير السعدي: ٤٥٣].

الثامن: دوام تنزيهه سبحانه عن كل نقص أو شريك في كل حال وأوان، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الروم:١٧].

صيغ التسبيح في السنة النبوية:

وضعت هذا العنوان وإن كان علىٰ غير شرط المقال؛ لأن البحث في الدعاء القرآني والتسبيح القرآني، ولكن صيغ الدعاء والتسبيح هي لبُّ هذه المقالات، حتىٰ يتأتىٰ لقارئها الامتثال والتطبيق العملي، ومما وقفت عليه في السنة من صيغ التسبيح:

١- سبحان الله وبحمده، وهي صيغة مأمور بها في القرآن في عدد من الآيات ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ﴾ [سورة الفرقان:٥٨]، وهو تسبيح الملائكة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [سورة البقرة:٣٠]، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يختم حياته بالإكثار منها، فيا لها من صيغة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [سورة النصر:٣].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَىٰ اللهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»(١).

وهذه الصيغة مؤقتة في اليوم والليلة بعدد رتب عليه أجر، جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»(٢)، وجاء في حديث آخر عنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ قَالَ: حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ»(٣).

---

(١) [رواه مسلم: ٢٧٣١].

(٢) [رواه البخاري: ٦٤٠٥، ومسلم: ٢٦٩١].

(٣) [رواه مسلم: ٢٦٩٢].

٢- سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، وفي فضل هذه الصيغة حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»(١).

٣- سبحان الله العظيم وبحمده، وفي فضل هذه الصيغة حديث جَابِرٍ ﷺ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ»(٢).

٤- سبحان الله، أو سبحان ربي، وهي من الصيغ التي جاءت في القرآن، وفي فضلها حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ»(٣). وقَالَ ﷺ: «... وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... »(٤) ، وقال ﷺ: «لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»(٥) ، وهذه الصيغة (سبحان الله) مع التكبير والتحميد من الأذكار البعدية للصلاة المفروضة، تقال ثلاثا وثلاثين مرة.

٥- سبحان ربي العظيم في الركوع، وعند قراءة قول الله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الواقعة:٧٤]. وسبحان ربي الأعلىٰ في السجود، وعند قراءة قول الله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [سورة الأعلى:١]. ومن الصيغ التي جاءت في الركوع والسجود ما جاء في حديث

---

(١) [رواه البخاري: ٦٤٠٦، ومسلم: ٢٦٩٤].

(٢) [رواه الترمذي، وقال حسن صحيح غريب: ٣٤٦٤، وصححه الحاكم والألباني].

(٣) [رواه مسلم: ٢٦٩٨].

(٤) [رواه مسلم: ٢٢٣].

(٥) [رواه مسلم: ٢٦٩٥].

عَائِشَةَ رضي الله عنها ، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» [١].

وصيغة أخرىٰ جاءت في حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»[٢]. ومعناه: مسبح مقدس رب الملائكة والروح.

وفي حديث لها آخر أنه عليه الصلاة والسلام قال في ركوعه أو سجوده «سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[٣]. وورد في الركوع أيضاً حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ في قيام الليل قال في ركوعه: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ» [٤].

٦- سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته:

وفي فضلها : حديث جُوَيْرِيَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّىٰ الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَىٰ، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «مَا زِلْتِ عَلَىٰ الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»[٥].

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: وهذا يسمىٰ الذكر المضاعف، وهو أعظم ثناء من الذكر المفرد فلهذا كان أفضل منه، وهذا إنما يظهر في معرفة هذا الذكر وفهمه؛ فإن قول المسبح: سبحان

---

(١) [رواه البخاري: ٧٩٤، ومسلم: ٤٨٤].

(٢) [رواه مسلم: ٤٨٧].

(٣) [رواه مسلم: ٤٨٥].

(٤) [رواه أبو داود: ٨٧٣].

(٥) [رواه مسلم: ٢٧٢٦].

الله وبحمده عدد خلقه يتضمن إنشاء وإخبارا عما يستحقه الرب من التسبيح عدد كل مخلوق كان أو هو كائن إلىٰ ما لا نهاية له[١].

٧- ما جاء في حديث ابْنِ عُمَرَ ﷺ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنَ الْقَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا؟» قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:«عَجِبْتُ لَهَا، فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ» قَالَ ابْنُ عُمَرَ:«فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ»[٢].

٨- سبحان الملك القدوس، وفيها حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَلَّمَ فِي الْوِتْرِ، قَالَ: «سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ»[٣] ، وفي حديث عبد الرحمن بن أبزىٰ يقولها ثلاثا[٤]. وجاء في حديث عائشة ﵂ أن النبي عليه الصلاة والسلام يقولها عشرا قبل شروعه في صلاة الليل[٥].

٩- ما جاء في حديث أَبِي أُمَامَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفَلَا أُخْبِرُكَ بِأَكْثَرَ أَوْ أَفْضَلَ مِنْ ذِكْرِكَ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ، وَالنَّهَارَ مَعَ اللَّيْلِ؟ أَنْ تَقُولَ:سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا أَحْصَىٰ كِتَابُهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَسُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَقُولُ الْحَمْدُ مِثْلَ ذَلِكَ»[٦]. فحري بالمؤمن أن يحفظ هذه الصيغ، وأن يكثر مما أطلق منها، ويأتي بالمقيد منها في موضعه بالعدد الوارد في النص.

---

(١) [المنار المنيف: ٣٥].

(٢) [رواه مسلم: ٦٠١].

(٣) [رواه أبو داود: ١٤٣٠].

(٤) [رواه أحمد: ١٥٣٥٤].

(٥) [جامع المسائل لابن تيمية: ٣ / ٢٧٨].

(٦) [رواه أبو داود: ٥٠٨٥].

المسألة الخامسة عشر : دعوات قرآنية في الآخرة

في القرآن الكريم كثير من الدعوات التي يدعىٰ بها في الآخرة، مع أن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل، ولكن هذه الدعوات إن كانت من مؤمنين فهي علىٰ نوعين:

الأول: ما يكون بعد البعث وقبل دخول الجنة؛ فهي دعوات للنجاة من كرب يوم القيامة.

الثاني: ما يكون بعد دخول الجنة فهي من جملة ما يتنعم به أهل الجنة من اللذائذ الحسية والمعنوية، فيُلهمون هذه الدعوات كما يلهمون التسبيح والحمد وسائر الذكر.

وإن كانت من كفار فهي سراب خادع، وأمل كاذب يتمنون أن يستجيب الله تعالىٰ لهم فلا يستجيب لهم، فيزيدهم ذلك حسرة وألما وعذابا.

دعوات المؤمنين في الآخرة:

١- دعوة أصحاب الأعراف: قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الأعراف:٤٧].

الأعراف: حجاب أو سور بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. نص عليه حذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف، ﷺ تعالىٰ[1].

وفي البناء للمجهول في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [سورة الأعراف:٤٧]، دليل علىٰ أنهم يُوجهون أبصارهم إلىٰ أصحاب الجنة بالقصد والرغبة، ويلقون إليهم السلام، وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار. فإذا صرفت أبصارهم تلقاءهم، أي: حولت إلىٰ الجهة التي تلقاهم وتبصرهم فيها -وإنما يكون ذلك عن غير توخ ولا رغبة، بل بصارف يصرفهم

---

(١) [تفسير ابن كثير: ٣/ ٤١٨].

إليها أو بمقتضىٰ سرعة تحولها من جهة إلىٰ جهة- قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين حيث هم ولا حيث يكونون[١].

وهذا الدعاء يشرع للمؤمن أن يدعو به سواء أراد أن لا يكون مع الظالمين في الدنيا أي: بمخالطتهم ومشاركتهم في ظلمهم أو إعانتهم عليه أو إقرارهم له، أو قصد في دعوته أن لا يكون معهم في الآخرة كما دعا أصحاب الأعراف. والأولىٰ أن يقصد الأمرين جميعا؛ فإن من جانب الظالمين في الدنيا فحري أن يجانبهم في الآخرة، ومن خالطهم في الدنيا فيخشىٰ عليه أن يحشر معهم في الآخرة.

٢- دعاء المؤمنين علىٰ الصراط: قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [سورة التحريم:٨].

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين[٢]، وقد ورد في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام يعرف المؤمنين من أمته بنورهم يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم[٣].

وقد تضمنت هذه الدعوة مطلبين: إتمام النور والمغفرة، وكلاهما يحتاجه العبد، وعليه فإنه يشرع للمؤمن في الدنيا أن يتأسىٰ بالمؤمنين في الآخرة فيدعو بهذا الدعاء، فلعله إن أكثر منه في الدنيا نال بركته علىٰ الصراط في الآخرة.

٣- دعاء أهل الجنة: قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة يونس:٩-١٠].

---

(١) [تفسير المنار: ٨/ ٣٨٦].

(٢) [تفسير القرطبي: ١٨/ ٢٠١].

(٣) [رواه أحمد:٢١٧٣٧].

وفي هذا الدعاء مسائل:

المسألة الأولىٰ: أن هذه الدعوة المباركة تضمنت ثلاثة أمور مرتبة ترتيباً بديعاً، وهي التسبيح والسلام والحمد، وهذه الآية تشبه قول الله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [سورة الصافات:١٨٠-١٨٢].

وقد وردت آثار عن السلف أن أهل الجنة إذا أرادوا شيئا سبحوا فأحضر لهم الملائكة ما طلبوا فسلموا عليهم فإذا أخذوه حمدوا الله تعالىٰ علىٰ نعمته. ويكون معنىٰ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ [سورة يونس:١٠]؛ أي: طلبهم في الجنة إذا أرادوا شيئا(١).

المسألة الثانية: أن التسبيح والحمد والتهليل يسمىٰ دعاء، مثل دعاء الكرب ودعوة ذي النون؛ فإن الدعاء منه دعاء ثناء ومنه دعاء طلب(٢).

المسألة الثالثة: يستحب للداعي أن يختم دعاءه بالحمد تأسيا بأهل الجنة، وحَسَنٌ أن يقرأ آخر (الصافات) فإنها جمعت تنزيه الباري تعالىٰ عما نسب إليه، والتسليم علىٰ المرسلين، والختم بالحمد لله رب العالمين(٣).

المسألة الرابعة: أن في الجنة تسبيحاً وحمدا وسلاماً وذكرا؛ كما دلت عليه الآية، وقال النبي عليه الصلاة والسلام في أهل الجنة «...يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ»(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: أهل الجنة يتنعمون بالنظر إلىٰ الله ويتنعمون بذكره وتسبيحه ويتنعمون بقراءة القرآن...ويتنعمون بمخاطبتهم لربهم ومناجاته، وإن كانت هذه

---

(١) [ينظر: تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٥٠].

(٢) [تفسير القرطبي: ٨/ ٣١٤].

(٣) [تفسير القرطبي: ٨/ ٣١٤].

(٤) [رواه مسلم: ٢٨٣٥].

الأمور في الدنيا أعمالا يترتب عليها الثواب؛ فهي في الآخرة أعمال يتنعم بها صاحبها أعظم من أكله وشربه ونكاحه[١].

٤- دعاء المحتضر قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة المنافقون: ١٠].

وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولىٰ: سياق الآية يدل علىٰ أن الداعي بهذا الدعاء هو المؤمن المفرط عند الاحتضار، وهو ظاهر كلام الطبري وابن كثير والسعدي ونص عليه ابن عاشور فقال: والمعنىٰ: فيسأل المؤمن ربه سؤالا حثيثا أن يحقق تأخير موته إلىٰ أجل يستدرك فيه ما اشتغل عنه من إنفاق وعمل صالح[٢].

وجاء فيه حديث ضعيف موقوف علىٰ ابن عباس ﷺ عند الترمذي قال: «**من كان له مَالٌ يُبَلِّغُهُ حَجَّ بَيْتِ رَبِّهِ أو تَجِبُ عليه فيه الزَّكَاةُ فلم يَفْعَلْ سأل الرَّجْعَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ، فقال رَجُلٌ: يا ابن عَبَّاسٍ، اتَّقِ اللهَ، إنما سأل الرَّجْعَةَ الْكُفَّارُ. قال: سَأَتْلُو عَلَيْكَ بِذَلِكَ قُرْآنًا... فتلا الآية**»[٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: كل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئا يسيرا، يستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات! كان ما كان، وأتىٰ ما هو آت، وكل بحسب تفريطه[٤].

ونقل البغوي عن مقاتل وجماعة أنها في المنافقين[٥]. والصواب قول الجمهور.

---

(١) [الفتاوىٰ: ٤/ ٣٣٠].

(٢) [التحرير والتنوير: ٢٨/ ٢٥٣].

(٣) [سنن الترمذي: ٣٣١٦].

(٤) [٨/ ١٣٣].

(٥) [٨/ ١٣٤].

المسألة الثانية: قال ابن عباس ﷺ: **هذه الآية أشد على أهل التوحيد، لأنه لا يتمنى الرجوع في الدنيا أو التأخير فيها أحد له عند الله خير في الآخرة. قال القرطبي: قلت: إلا الشهيد فإنه يتمنى الرجوع حتى يقتل، لما يرى من الكرامة**[١].

المسألة الثالثة: في هذه الدعوة عدم عزم في المسألة لأنه قال: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ [سورة المنافقون: ١٠]، ولم يقل (رب أخِّرني)، والمعنى: إن أخَّرتني أصدَّق وأكن من الصالحين، أو: إن تؤخرني أصدق وأكن من الصالحين[٢].

وعدم العزم في الدعاء مخالف لقول النبي ﷺ: «**لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، فَإِنَّهُ لاَ مُكْرِهَ لَهُ**»[٣].

وقد أجاب عن ذلك ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى فقال: القرآن حكى عن الناس ما هو الغالب على أقوالهم[٤]. يريد أنه ليس إقرارا للتردد في الدعاء أو عدم عزم المسألة.

المسألة الرابعة: أن هذه الدعوة القرآنية تصلح دليلا لمن قال بجواز الدعاء بما يخالف القدر كالدعاء على الكفار بالهلاك العام مع أنه لا يقع، ونحو ذلك؛ لأن المؤمن المفرط يدعو عند موته بما يخالف القدر وهو تأخير الأجل مع علمه أنه لا يؤخر.

ويصح نقض هذا الاستدلال بأنه لم يجب في دعوته وردت بقول الله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة المنافقون: ١١].

المسألة الخامسة: الظاهر أنه لا يدعى بهذا الدعاء؛ لأن الإنسان لا يعلم متى يقع أجله، ولإشكال الدعاء بما يخالف القدر. لكن للإنسان أن يدعو بطول العمر مقرونا بحسن العمل؛

---

(١) [تفسير القرطبي: ١٨/ ١٣١].

(٢) [تفسير النسفي: ٣/ ٤٨٨، وتفسير أبي حيان: ١٠/ ١٨٤].

(٣) [رواه البخاري: ٦٣٣٩، ومسلم: ٢٦٧٩].

(٤) [٢٨/ ٢٥٣].

لأن النبي عليه الصلاة والسلام سئل: أي الناس خير؟ فقال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»[١].

وكون المؤمن يسأل الله تعالىٰ ما يكون سببا في نيل الخيرية أمرًا مرغوبًا فيه ومندوبًا إليه.

وليس هذا الدعاء مما يتعارض مع القدر؛ لأن الأجل لم يحضر، وهو وإن كان مقدرا ومكتوبا قبل خلق الإنسان إلا أن النصوص دلت علىٰ إطالته بصلة الرحم، كما دلت علىٰ أن الدعاء يرد القدر.

دعوات الكفار:

١- دعاء المحتضر، فالكافر حين يرىٰ مقدمات العذاب بسكرات الموت يسأل الله تعالىٰ الرجوع للدنيا للإيمان والعمل الصالح فلا تجاب دعوته، قال الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [سورة المؤمنون:٩٩-١٠٠] ، **قال قتادة رحمه الله تعالىٰ**: ما تمنىٰ أن يرجع إلىٰ أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنىٰ أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فرحم الله امرءا عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأىٰ العذاب[٢].

وقال العلاء بن زياد رحمه الله تعالىٰ: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله ﷻ[٣].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ [سورة المؤمنون:١٠٠]، قال عبد الرحمن بن زيد رحمه الله تعالىٰ: لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم[٤].

---

(١) [رواه الترمذي وقال: حسن صحيح: ٢٣٣٠].

(٢) [تفسير البغوي: ٥/ ٤٢٨].

(٣) [تفسير ابن كثير: ٥/ ٤٩٤].

(٤) [تفسير ابن كثير: ٥/ ٤٩٤].

وفي القرآن آيات كثيرة تدل علىٰ أن الكفار يتمنون الرجوع للعمل الصالح، ويدعون الله تعالىٰ أن يرجعهم؛ وذلك عند الاحتضار كما في الآية السابقة.

ويدعون أيضاً في الآخرة أثناء الوقوف عند الله تعالىٰ للحساب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة السجدة:١٢].

ويدعون أيضاً عند رؤية العذاب والوقوف علىٰ النار أجارنا الله تعالىٰ والمسلمين منها، ومن الآيات في ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأنعام:٢٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [سورة الأعراف:٥٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [سورة إبراهيم:٤٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الشورى:٤٤].

ويدعون أيضاً وهم في النار يعذبون كما في قول الله تعالىٰ مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة المؤمنون:١٠٦-١٠٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [سورة فاطر:٣٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [سورة غافر:١١].

فذكر تعالىٰ أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض علىٰ الجبار، وحين يعرضون علىٰ النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم[(١)].

---

(١) [تفسير ابن كثير: ٥/ ٤٩٣].

فإذا أيسوا من النجاة سألوا تخفيف العذاب، وطلبوا من الملائكة أن يدعوا الله تعالىٰ لهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة غافر:٤٩].

ولكن دعاءهم لا يجاب : ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة غافر:٥٠].

٢- دعاء أهل النار علىٰ أنفسهم: قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [سورة الفرقان:١٣-١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة الانشقاق:١٠-١٢].

والمعنىٰ: دعوا علىٰ أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم ولا مغنية من عذاب الله تعالىٰ، بل يقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [سورة الفرقان:١٤]، أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن[(١)].

والدعاء: النداء بأعلىٰ الصوت، **والثبور**: الهلاك، أي نادوا: يا ثبورنا، أو وا ثبوراه بصيغة الندبة، وعلىٰ كلا الاحتمالين فالنداء كناية عن التمني، أي: تمنوا حلول الهلاك، فنادوه كما ينادىٰ من يطلب حضوره، أو ندبوه كما يندب من يتحسر علىٰ فقده، أي: تمنوا الهلاك للاستراحة من فظيع العذاب[(٢)].

---

(١) [تفسير السعدي: ٥٧٩].

(٢) [التحرير والتنوير (١٨/ ٣٣٤].

يعني: يا هلاكي تعالَ احضر، فهذا أوانك لتُخلِّصني مما أنا فيه من العذاب، فلن يُنجيني من العذاب إلا الهلاك؛ لذلك يقولون: أشدّ من الموت الذي يطلب الموت علىٰ حَدِّ قول الشاعر:

كَفَىٰ بِكَ دَاءً أَنْ تَرَىٰ الْمَوتَ شَافِيًا وَحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيًا

ولك أن تتصور بشاعة العذاب الذي يجعل صاحبه يتمنىٰ الموت، ويدعو به لنفسه(١).

وورد في حديث مرفوع ضعيف الإسناد أن إبليس هو أول من يدعو قائلا: واثبوراه فيردد أهل النار وراءه: يا ثبورهم(٢).

٣- دعاء أهل النار بعضهم علىٰ بعض: في يوم القيامة يتبرأ أهل النار بعضهم من بعض، فيتبرأ المتبوعون من الأتباع كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [سورة البقرة:١٦٦]، فيندم الأتباع ويتمنون لو كان لهم رجعة إلىٰ الدنيا حتىٰ يتبرءوا ممن تبعوهم في باطلهم فتخلوا عنهم وتبرءوا منهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [سورة البقرة:١٦٧].

ويدعونهم فلا يستجيبون لهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ [سورة القصص:٦٢-٦٤].

فما يكون من الأتباع وقد يأسوا من النجاة إلا أن يدعوا علىٰ المتبوعين من السادة والكبراء بمضاعفة العذاب عليهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الأعراف:٣٨]، وقال

---

(١) [تفسير الشعراوي: ١٧/ ١٠٣٧٧].

(٢) [رواه أحمد: ١٢٥٣٦].

تعالىٰ مخبراً عن دعائهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الأحزاب:٦٧-٦٨].

ويسألون الله تعالىٰ أن يريهم إياهم في النار حتىٰ ينتقموا منهم علىٰ إضلالهم لهم في الدنيا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة فصلت:٢٩]، وهو كناية عن إرادة انتقامهم منهم؛ ولذلك جزم ﴿نَجْعَلْهُمَا﴾ [سورة فصلت:٢٩]، في جواب الطلب علىٰ تقدير: إن تريناهما نجعلهما تحت أقدامنا. والجعل تحت الأقدام: الوطء بالأقدام والرفس، أي: نجعل آحادهم تحت أقدام آحاد جماعتنا، فإن الدهماء أكثر من القادة فلا يعوزهم الانتقام منهم. وكان الوطء بالأرجل من كيفيات الانتقام والامتهان، وإنما طلبوا أن يروهما؛ لأن المضلِّين كانوا في دركات من النار أسفل من دركات أتباعهم فلذلك لم يعرفوا أين هم، والتعليل ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة فصلت:٢٩]؛ توطئة لاستجابة الله تعالىٰ لهم أن يريهموهما؛ لأنهم علموا من غضب الله عليهم أنه أشد غضبا علىٰ الفريقين المُضِلَّينِ فتوسلوا بعزمهم علىٰ الانتقام منهم إلىٰ تيسير تمكينهم من الانتقام منهم. والأسفلون: الذين هم أشد حقارة من حقارة هؤلاء الذين كفروا، أي: ليكونوا أحقر منا جزاء لهم[(١)].

ولا يحل لمؤمن أن يدعو بشيء من هذه الأدعية التي يدعو بها الكفار عند الاحتضار أو عند البعث والحساب أو في النار، وقد رأيت من كتب في الأدعية القرآنية فجمع فيها أدعية أهل النار مع الأدعية الخاصة ببعض الرسل عليهم السلام مع الأدعية العامة، وحث من تناول ما جمع في رسالته أن يدعو بها جميعا، وأغلب ظني أنه جمع كل دعاء صُدِّر بـ(**ربنا، أو رب**) ولم ينظر لما بعده، ولا إلىٰ المعنىٰ، فليفطن لذلك من اقتنىٰ كتيبا يجمع له أدعية القرآن الكريم.

---

(١) [التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٨٠-٢٨١].

فهرس الموضوعات

الرقم	الموضوع	الصفحة
١	المسألة الأولىٰ : صيغ الدعاء القرآني	٢
٢	المسألة الثانية : الإفراد والجمع في الدعاء	٧
٣	المسألة الثالثة : دعاء المضطر	١١
٤	المسألة الرابعة : هل تجاب دعوة الكافر؟	١٥
٥	المسألة الخامسة : الدعاء القرآني في الصلاة.....	٢٢
٦	المسألة السادسة : دعوات مأمور بها.....	٢٨
٧	المسألة السابعة : الدعاء بالموافاة علىٰ الكفر أو المعصية.....	٤٠
٨	المسألة الثامنة : المرور بآيات التسبيح والسؤال والتعوذ.....	٤٨
٩	المسألة التاسعة : دعوات الرسل عليهم السلام.....	٦٠
١٠	المسألة العاشرة: مسائل الرسل عليهم السلام.....	٧٠
١١	المسألة الحادية عشرة : تفصيل الدعاء أو تعليله.....	٨١
١٢	المسألة الثانية عشرة: دعوات المؤمنين.....	٩١
١٣	المسألة الثالثة عشر : الاستغفار القرآني.....	١١٣
١٤	المسألة الرابعة عشر : التسبيح القرآني.....	١٣٠
١٥	المسألة الخامسة عشر : دعوات قرآنية في الآخرة	١٤٦
١٦	فهرس الموضوعات	١٥٦